جمعة بوكليب

DAYS IN LONDON

نهارات لندنية

رواية

دار الفرجاني

جمعة بوكليب

DAYS IN LONDON

نهارات لندنية

رواية

دار الفرجاني

نهـارات لندنيـة

جمعة بوكليب

روائي أرتري يقيم في الدانمارك بعد أن عاش عدة ولد العام 1952 بطرابلس – ليبيا. بدأ الكتابة والنشر في منتصف السبعينيات من القرن الماضي. اعتقلته سلطات القذافي العام 1978 وسجن لمدة 10 سنوات ثم هاجر إلى بريطانيا أواخر 1988. صدرت مجموعته الأولى عام 2008 تحت عنوان «حكايات من البر الأنكليزي». ثم مجموعته الثانية عام 2013 بعنوان «خطوط صغيرة في دفتر الغياب»، كما ترجم عن الانجليزية كتاب «ترياق للثعابين». صدر له «يد التاريخ: مقالات» العام 2021. عمل دبلوماسيا لدى الخارجية الليبية في بريطانيا حتى تقاعده العام 2017، يكتب المقالة بصحف ومنشورات عديدة من بينها الشرق الأوسط، الوسط والصباح.

جمعة بوكليب

نهارات لندنية

رواية

دار الفرجاني

دار الفرجاني
الطبعة الأولى 2021
جميع الحقوق محفوظة للكاتب جمعة بوكليب ©

ISBN 9789775496850 ردمك
رقم الإيداع: 11693 / 2021

9 ميدان الذهبي
منشيه البكري
القاهرة
جمهورية مصر العربية
Tel: +201001619295
تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إلى أحبابي:

عمر وكريم وآدم وأملي

نهارٌ عاديٌ جداً

عزيزي محمد

كيف أمورك أيّها الصديق؟

سامحني على تقصيري في الكتابة إليكَ، لأنّي، كما تعرف أنتَ جيداً، مازلتُ مثل «خالتك حليمة» التي تُصرّ على عدم نسيان عاداتها القديمة.

وصلتني رسالتك الأخيرة. وشكرتُ الله كثيراً على ما أجزى لك من نِعمْ، وما أسبغ عليكَ، وعلى أفراد عائلتك من سعادة وعافية.

أخباري ما زالتْ، كما عرفتها أنتَ جيداً، لم تعرف جديداً. ومازلتُ، في لندن، أطاردُ دون توقف ولا ملل، أو تعب، أشباحَ طفولتي الغريقة، وألهثُ خلف غزالاتِ صِباي. وما زلتُ أرعى ما تبقى في قلبي المسنّ من أحلام ترّفُ بالتفاؤل، رغماً عن الغربة وصديد النيكوتين. ومازلتُ، كما عرفتني، «أسيرُ مع الجميع وخطوتي وحدي».

انتهيت، مؤخراً، من إعداد مجموعتي القصصية الثانية. وبعد إنتهائي من إجراء بعض التشطيبات واللمسات النهائية والضرورية، في فترة زمنية آمل أن تكون قصيرة، سأدفع بها إلى المطبعة. وأتمنّى أن تحظى باستقبال وقبول حسن، مماثلين لما حظيتْ به مجموعتي الأولى.

أعتقد أن الوقت مواتٍ، الآن، للبدء في التفكير في كتابة رواية. أنتَ، بالتأكيد، تعرفُ مدى اشتعال رغبتي في، وتهيّبي من، الدخول في تجربة كهذة. لكن، وكما يقول المثل: «وقفتْ الزنقة للهارب.» بمعنى أنّني، في هذه المرحلة من العمر، وتجربتي المتواضعة، حياتياً وإبداعياً، لم يتبق لي سوى التشمير عن ساعديَّ، وخوض المشوار، وفي الأخير: «العظمْ الرهيف الله لا يردّه».

في الأيام الأخيرة، بدأت تناوشني فكرة رواية مرتبكة مثلي، وظريفة مثلك، في نفس الوقت. وسأحكي لك قصّتها دون حذف أو تزويق. كنتُ، ذلك اليوم، أسهرُ مع مجموعة من الأصدقاء، في بيت صديق لنا، في منطقة «تشيلسي.» أعتقد أنّني حكيتُ لكَ، في رسائل سابقة، عن «تشيلسي»، والعلاقة الغريبة المريبة والمبهجة التي تجمعني بها. أتذكّر أننا بعد تناولنا لوجبة العشاء،جلسنا على آرائك جلدية مريحة في حجرة جلوس، متحلقين حول مدفأة من طراز فيكتوري، نتحدث ونتسامر. حينما تطرّق أحدنا – أعتقد أنه سليمان، الذي سبق وأن حكيت لكَ في رسالة سابقة، عن معاناته

النفسية عقب فرار ابنته، السنة الماضية، من البيت، مع شاب انكليزي– لقصة امرأة انكليزية حاولت تسميم زوجها بغرض قتله من أجل الإستحواذ على ثروته، بعد زواج دام تقريباً عشرين عاماً. شدّنا الموضوع بغرابته. لأنّ العادة جرت أن تقرأ قصصاً في الصحف والمجلات عن رجال يقتلون زوجاتهم، أو يحاولون ذلك لأسباب لا تُخفى عليك. بدأ الأصدقاءُ، واحداً تلو آخر، في سرد حكايات وقصص مماثلة لنساء قتلن أزواجهن، أو حاولن ذلك. أذكر أنّني بعد انقضاء السهرة، ورجوعي إلى شقّتي في «ويمبلدون»، جلستُ، على كنبة كبيرة، وحيداً، أشاهد فيلما تلفزياً في حجرة الجلوس، حينما وجدتُ نفسي سارحاً وراء القصة سابقة الذكر. لا أعرف كيف تسرّبت الفكرة إلى رأسي، وأستحوذت على عقلي وتفكيري، في تلك الساعة المتأخرة من الليل. فأنا، أيّها العزيز على قلبي، مازلتُ، كما عرفتني، أعزف عن متابعة وقراءة أخبار الجرائم والقتل التي تحرص الصحفُ، وبقية وسائل الأعلام، على نشرها، وكأنّها تريد تذكيرنا بأننا كبشر، مازالتْ، رغم كل ادعاءاتنا بالتحضر، تتحصنُ في دواخلنا صفةُ التوحش البدائية. وما زالَ القتلُ، ومنظرُ الدماء المسفوحة، يهيّج أرواحنا ويستثيرها. تعرفُ، أيضاً، أنّني أعزفُ حدّ القرف عن قراءة وسماع الأخبار السياسية، لأنّني أصنّفُ السياسيين والقتلة المجرمين تحت خانة واحدة. الفرقُ الوحيد بينهما، بالنسبة لي، أنّني أحياناً أشعرُ بنوع من التعاطف مع القتلة والمجرمين بسبب ظروفهم المعيشية الصعبة، التي دفعتهم وما زالت تدفعهم إلى ارتكاب جرائمهم. أمّا السياسيون فإنهم، بالنسبة لي، قتلة مجرمون محترفون بالفطرة. وما عليك سوى التمعّن فيما يحدث في عالمنا هذا من جرائم يقترفونها كل يوم. وهذا طبيعي، «لأنّ السلطة»، كما يقول الروائي والناقد الياس خوري في مقالة قرأتها مؤخراً، «تقود إلى الهوس، والهوس يقود إلى الجريمة.» فالسياسيون، كما أحبُ أن أسميهم، قتلةٌ بترخيص. دعنا من ذلك الآن. بدأتُ أقلّبُ الموضوع وأتمعّن في جوانبه المختلفة. اكتشفت أن هناك إمكانية لأن أخوض تجربة كتابة رواية تتناول فكرة قتل الأزواج لزوجاتهم، والعكس. مثلاً، لماذا يلجأ شخص ما إلى قتل زوجته؟ ولماذا تفكر زوجة ما في التخلص من زوجها بعد عِشرة طويلة؟ أهو الملل؟ أم الطمع؟ أم التوق للانفلات من براثن المسؤولية العائلية؟ أو تلاشي الود؟ أنا، شخصياً، ليس بمقدوري وضع سبابتي على السبب. ألا ترى أن الأمر محيّر حقاً؟ هناك كثير من الأسباب والتفسيرات التي أعرفُ بعضها، وأجهلُ أكثرها. لذلك، خمّنت أنّه يَحقّ لي، كما حُقّ ويَحقّ لغيري، فتح شراع مركبي، والإبحار من أجل الوصول إلى قناعة تُرضي ما تزاحم في قلبي من أسئلة. في صبيحة اليوم التالي، وبدون إضاعة للوقت، بدأتُ مشروع بحث في الموضوع. شرعتُ في متابعة أخبار جرائم القتل بالصحف عموماً، وقتل الأزواج لزوجاتهم والعكس، على وجه الخصوص. بدأتُ، أيضاً، في التردد على المكتبات العمومية، والبحثُ في السجلات، والوثائق الجنائية المتاحة في جرائم القتل المتعلقة بالأزواج. وفي نفس الوقت، ركّزت في قراءاتي على الروايات البوليسية والجريمة. استمر بحثي لأيام طويلة نسبياً، وكلما اتسع مدى إطلاعي ازدادت شهيّتي للمزيد. الأمر الذي أخافني حقيقة!! في نهاية كل يوم، كنتُ أستلقي على سريري، وأستعيد في داخلي بعض تفاصيل الجرائم، التي قرأتُ عنها ذلك اليوم والأيام التي سبقته، وأنا أرتجف رُعباً، بغرض الاستفادة مما تعلمته، وقرأتُه في تصميم خطة تعينني على كتابة روايتي، بشكل يجعل القارئ لها يصدّق أنّ مؤلفها لابدّ أن يكون قاتلاً محترفاً، وسليل قتلة من الطراز الأول.

تبيّن لي أن المرتكب للجريمة، مهما بلغ تخطيطه وشرود فكره، لابدّ أن يترك وراءه أثراً يقود إليه في نهاية الأمر، وينتهي به الى السجن. أنتَ، أيّها الصديق العزيز، تعرف مدى رعبي وخوفي من كلمة سجن. وتعرف، تماماً، علاقتي بالسجن والسجون، وعلى علم وادراك بالسنوات، المُرّة والطويلة، التي قضيتها، في زنازين سجون وطني، دون جريرة اقترفتها. لذلك، كثيراً ما ظللت أفكر في امكانية أن أنتهي من كتابة روايتي، ونشرها، ثم تقع نسخة منها صدفةً بين يديّ قارئ ما، يقرأ الرواية، وتختلط عليه الأمور، فينسى أن الكتاب، الذي بين يديه، ليس سوى رواية من عمل الخيال، هدفها، الأول والأخير، إدخال شيء من المتعة إلى قلبه، كي ينسى للحظات همومه وأحزانه. ويَعتقدُ، مخطئاً، أنه مانفيستو للقتل، فيقوم بارتكاب جريمة. وحينما يقع بين أيدي العدالة، يعترف أنني كمؤلف كنتُ المحرّضَ، فيكون مصيري السجن!

ولك أن تتخيّل، أيّها الصديق العزيز، صديقك الكاتب الهُمام، مقيّداً بالأصفاد، مرة ثانية، وهو يُساق إلى ذلك المكان الكريه، الذي لا أحبّ حتى مجرد ذكر اسمه.

لذلك، فإنّني، لدى البدء في الكتابة، سوف أكونُ حريصاً، منذ الصفحة الأولى، على تنبيه كل القرّاء بأن ما يقرؤونه لا يتعدى حدود الخيال، ولا يستهدف غير الإمتاع والمؤانسة. وإنّني، كمؤلف، بريءٌ براءة الذئب من دم ابن يعقوب، من كل شخص يجرؤ على تعدي هذة الحدود، ومحاولة الاستفادة مما كتبته في الغرض غير المقصود منه، ناهيك عن العقاب الذي لابدّ له من نيله «وعلى نفسها جنت براقش.»

أعلم أنّه قد لا تروقك رواية كهذه، وأنك قد تعتبرها ترفاً لا جدوى منّه. وأعلم، أيضاً، أنّك قد ترى فيما حكيتُ لك مجرد هروب إلى الأمام، لأنّني، كما تؤكد لي دائماً، أجد الهروب إلى الأمام أسهلُ عليَّ من مواجهة واقعي المُرّ. أنا أعلم، أيضاً، أنك تتمنى عليَّ، وتطلب منّي بالحاح، الالتفات إلى تجربة السجن، والتركيز عليها، وتقديمها في عمل روائي يكون بمثابة المُطهّر الذي يخلّصني منها نهائياً. وأنا، لا أُخفيكَ سرّاً، لا أُحبُّ تذكّر تلك التجربة العبثية الأليمة. ومازلتُ غير قادر على مواجهتها، لأنّها مازالت تقطر دماً في قلبي وخلايا عقلي، وتتعقبني في أدق تفاصيل حياتي. ومازالتْ، رغم مرور عشرين عاماً على خروجي حَيّاً منها، تتنفس في داخلي ككابوس، يزدردني دون هوادة. تجربةُ السجن لم تكن محنتي الشخصية، رغم أنّني كنت في القلب منها، بل محنتنا جميعاً، ومحنة واقع غير إنساني التهمنا كمحرقة. حينما كنتُ أنا وآلاف غيري في السجن، كنتَ أنتَ وملايين غيرك في سجن أكبر وأسوأ، وأكثر عفناً من العفن الذي كنتُ وغيري نتنفسه صباحاً ومساء. ربما لذلك، ولأسباب أخرى لا أودُّ التطرق لها في هذه الرسالة، لا أريد لروايتي البِكر أن تمرّ بما مررتُ به من كوابيس. إضافة لذلك، تمتلئ المكتبة العربية بالعشرات من الروايات التي تتعرض للسجن السياسي. ألم نقرأ معا «تلك الرائحة» لصنع الله ابراهيم، و«القلعة الخامسة» لفاضل العزاوي، و«شرق المتوسط» لعبد الرحمن منيف؟ ماذا سأضيفُ، أنا، لقمم أدبية كتلك؟

أرجو ألاّ تفهم من ذلك أنني أُقلل من شأن تلك التجربة الأليمة، أو أُهوّنُ من قدرِ الرجال الأفذاذ الذين اصطلوا بنار جحيمها. العكس هو الصحيح. أنا أخاف ألاّ ترقى روايتي، إن كُتِبتْ، إلى مستوى تلك التجربة، وأخاف، حَدّ الرعب،

ألاّ أُوفيها حقّها. لذا، أرجو أن تتفهم ما أوضحتُ لك من أسباب، و تعدني بعدم العودة إلى هذا الموضوع.

آمل أن يصلني رأيك، حول موضوع الرواية المقترح، في أسرع وقت ممكن.

وتحياتي لك مجدداً ولأفراد أسرتك.

حان موعد قلقي.

نهارٌ غير محايد جداً

كنتُ، في «همَرسميث»، واقفاً في مبنى محطة الحافلات العامة الكبيرة في الموقف (C)، محتمياً من المطر، ومعتمراً ضجري، في انتظار وصول الحافلة رقم 220، والتي ستقلني إلى مبتغاي في «بتْني بريدج»، للقاء صديقي أحمد. أراقب من خلال الزجاج، بلامبالاة، سماءً غائمةً، وكالحةً كحيرتي. تُمطرُ برتابة مطراً متردداً، مثلي. يسيحُ في الشوارع وعلى الأرصفة كأيام عمري.

أعترف أنّني و«همَرسميث» تجمعنا علاقة تتسم بالإرتباك، بشكل يجعلني أتردد في الذهاب إليها للقاء صديق، أو قضاء شأنٍ من شؤوني. علاقتي بصديقي أحمد تتسم، أيضاً، بنفس النوع من الإرتباك، وإن اختلفتْ الحِدّة في الدرجة. فأنا أحبُّ صديقي أحمد، من بعيد لبعيد! وأفضّل أن نلتقي صوتياً عبر الهواتف. والفرقُ في علاقتي بالاثنين هو أنّني، دائماً، أشعر بالتجنّي على كليهما، بدون ذنب واضح اقترفاه ضدي، سوى أنّني لا أكره «همرسميث» بل أتضايق نفسياً منها، لأنها تجعل قلبي ينكمش ضجراً كلما جئتها. وأحب صديقي أحمد لكني أتضايق نفسياً،أحياناً، من لقائه. لأن بإمكانه، في بعض الأوقات، أن يجعل قلبي ينتفخ كبالون، من شدة الغيظ الذي ينتابني من لا معقولية عناده.

كنتُ واقفاً في مبنى محطة الحافلات العامة، في «همَرسميث»، قاصداً، بتردد لا يُخفى، لقاء صديقي أحمد، في نهار لندني غير محايد جداً، تظلله سماءٌ غائمةٌ كروحي، تُمطر مطراً متردداً كترددي، وأنا أغادر بيتي ووحشته، كل صباح. المحطة مزدحمة كالعادة. رجالٌ ونساءٌ جالسون على مقاعد حديدية باردة، أو واقفون، غارقون في صمتهم، ينظرون بعيون منطفئة، من خلال زجاج مبنى المحطة، إلى زخّات مطر يهطل متردداً، في انتظار وصول الحافلة رقم 220. ما أقسى الصمت حين يلتف بردائه العتيق حول أرواحنا فيخنق يقظتها، ويطفئ توهّجها، ويتركها كأرواح هؤلاء البشر، من حولي، فريسةً سهلةً لأنياب الملل ومخالب القلق!

تصلُ الحافلة المحطة. ينتظم الناس في طابور طويل. أتحرّك باتجاه آخر الطابور منتظراً دوري في الصعود. تتحرك الحافلة مغادرة المحطة، مخلفةً وراءها رصيفاً بارداً، ومبللاً، وخالياً، مستسلماً لقسوة صمت بلا قلب، ولزخّات مطر، مثلي، تبدو عليه، بوضوح، أعراض داء التردد.

في الحافلة جلستُ على مقعد شاغر، بجانب سيدة سوداء لون البشرة، وأنيقة. تتحدث عبر هاتفها النقّال، بصوت مسموع لكل من حولها، وبلغة خمّنتُ أنّها أفريقية. مثلي، ومثل غيرنا من الراكبين في الحافلة، في ذلك الوقت من النهار، كان واضحاً تقدّمها في العمر. كان الطريق غارقاً في لجة زحام حركة مرور السيارات، وحافلتي تتقدم ببطء وتراخ. ندمتُ

لأنّني تقصّدت عدم إحضار كتاب معي من البيت، أو شراء جريدة لتزجية الوقت في الحافلة. لم يكن لديَّ شيء أتلهّى به، سوى الشرود وراء ما يدور في رأسي من أفكار تسبب الصداع، وما يهسّ في حنايا قلبي من وساوس. تمنّيتُ لو أن صديقي أحمد يهاتفنيُ، ويبلّغني أنه لسبب ما طارئ لن يتمكن من الحضور في الموعد المتفق عليه بيننا. لكن هاتفي المحمول، الذي أضعه في الجيب الداخلي لسترتي الغامقة، حافظ على صمته. واصلتْ الحافلة شقّ طريقها وسط الزحام بصعوبة.

قررتُ مغادرة الحافلة في محطة «كنج وود روود»، ومواصلة بقية الرحلة مشياً، رغم هطول المطر. الرصيفُ خال من المارّة. طويلٌ وباردٌ، كنفق غربتي، والوحشة التي تتخندق في قلبي، منذ أن تركتني الطفولة، على حين غرّة، عارياً، إلاّ من خوفي، في مجاهل غابة، يسميها الناسُ مجازاً، دنيا. رددتُ بيني وبيني: «ما أوحش الطريق وما أقلّ الزاد.» بعد ربع ساعة تقريباً، وصلتُ «بتني بريدج.»

فوق الجسر، الممتد أشبه بقوس على نهر الثيمز، تمهلت في سيري، ثم توقفت. سرح بصري في النهر، تحتي، يمتد كثعبان مائي أسطوري، غارقاً في الصمت، مسبل العينين، مسترخياً، تتسكع بتكاسل، فوقه، غيومُ سماءٍ رمادية، كالحة وباردة كحيرتي، تمطر برتابة مطراً متردداً، كترددي، وأنا أهـمُّ، ذات يوم، بقطع مسافة بين منفى وبلاد أنكرتني.

رنّ جرس هاتفي المحمول. على الطرف الآخر منه سمعتُ صوت صديقي أحمد يعتذر عن التأخير بسبب ازدحام المرور، ويؤكّد على حضوره خلال نصف ساعة. اتفقنا على اللقاء في مطعم وبار «لامنشا» الأسباني، لتناول وجبة غداء معاً. أعدتُ هاتفي المحمول إلى سابق صمته، في مكانه المعتاد، من سترتي غامقة اللون، كالغيم المستحوذ على قلب السماء من فوقي، وقررت التسكع في شارع «بتني بريدج»، وزيارة بعض المحلاّت، التي تديرها جمعيات خيرية، تبيع كتباً مستعملة، بأسعار رخيصة. منذ مدة ليست بالقصيرة، توقفت عن شراء الكتب الجديدة والصادرة حديثاً، نظراً لارتفاع أسعارها، وأدمنت، بمرور الوقت وضيق ذات اليد، الترددَ على هذا النوع من المحلاّت، حيث يمكنني الحصول على مبتغاي من الكتب بأسعار رمزية. سرتُ على ناصية الجسر حتى نهايته، ثم قطعت الطريق إلى الضفة المقابلة من الشارع. مررتُ على مطعم وبار لامنشا، وألقيتُ نظرة عابرة، من خلال الزجاج، على من بداخله، وواصلت سيري متوغّلاً في زحام الشارع بالناس، واكتظاظ أزقة قلبي بالأسئلة. في محل جمعية خيرية ذات شهرة عالمية، اسمها «اوكسفام» وقفتُ أمام أرفف مليئة بكتب قديمة. أثار اهتمامي كتاب بعنوان غريب: «هذا الكتابُ سوف ينقذ حياتك.» مددت يدي اليمنى، وسحبت الكتاب من موضعه على الرفّ. تبيّن لي أن الكتاب رواية من تأليف كاتبة امريكية لا أعرفها، اسـمها «إيه. إم. هومز»، وصادر عن دار نشر بريطانية معروفة تسمى «جرانتا» قررتُ اقتناء الكتاب، والبدء في قراءته، في أقرب وقت ممكن، علّني أعرف كيف أتمكّن من إنقاذ حياتي، أو بالأحرى ما تبقى لي من حياتي!

غادرتُ المحلَّ، وتوجهت نحو مطعم وبار لامنشا. حين دخلتُ المطعم، وجدت صديقي أحمد جالساً على مقعد قرب البار، وأمامه على المنضدة، كأس من عصير برتقال. سلّمتُ عليه، وطلبت من عامل البار أن يأتيني بفنجان قهوة،

وسحبت مقعداً، تواجد بقربي، وجلست قبالته. ابتسم أحمد، وطلب أن يلقي نظرة على الكتاب. مددت إليه بالكتاب، فأخذه بين يديه، وبدأ يتصفحه. ضحك ضحكة ليست بريئة. قال لي بشيء من سخرية: «هل تصدّق أنّ كتاباً كئيباً، مثل هذا، سوف ينقذ حياتك؟» ضحكت، ثم قلت له، بنبرة أكثر سخرية، إن الكتب، دائماً، كانت السبب وراء خراب بيتي! قهقه أحمد ضاحكاً، ثم سألني عن السبب الذي دعاني لشراء الكتاب. قلتُ له إنّ العنوان استهوى فضولي فقررت شراءه وقراءته، على أمل أن يكون ما يقوله العنوان صحيحاً، ثم،عن قصد، غيّرت مجرى الحديث بسؤاله عن أحواله وأحوال زوجته وأطفاله.

تعرّفتُ على أحمد منذ حوالي عشرين عاماً، أي، على وجه التقريب، في السنة الأولى من وصولي إلى لندن، وبدء تجربتي في خوض مستنقعات غربة كافرة. أذكر أنّني كنتُ، ذات يوم شتائي بارد ورمادي، في زيارة لصديق ليبي يقيم في منطقة «ايلينغ برودوي»، وحين وصلتُ شقّته في شارع «مادلي روود»، وطرقتُ الباب، فتح لي أحمد باب الشقّة. بدا لي شاباً صغير السن، وحسب تعبير أمي «مازال يلعب في ظهر ثور.» عرّفني بنفسه، وعرّفته بنفسي. طلبَ منّي الدخول فدخلتُ الشقّة، وأغلقت الباب ورائي. قال لي، مبتسماً، إنّ صلاح خرج لشراء بعض الحاجيات من السوبر ماركت القريب، وسيعود خلال دقائق قليلة. عرفتُ منه أنّه كان زميلاً لصلاح إبّان دراستهما، في معهد طيران مدني بمدينة أكسفورد، وأنّه تخرّج مهندساً ميكانيكياً، لكنّه مثل صلاح، رفض العودة إلى ليبيا، وقرر البقاء في بريطانيا، عقب قطع البلدين العلاقات الدبلوماسية بينهما، في العام 1984 إثر مقتل الشرطية البريطانية إيفون فلتشر، أمام مبنى السفارة الليبية في منطقة «سانت جيمس سكوير»، بلندن، وظل بلا عمل لأنّ شركات الطيران، آنذاك، كانت ترفض توظيف أي شخص، من أصل ليبي، خوفاً من أن يكون إرهابياً! قال لي إنّه يقيم مع صديقة انكليزية في منطقة «هانزلو»، قرب مطار لندن-هيثرو، ويعمل، حالياً، في محل لبيع «البيتزا»، قريباً من مقر سكناه. سألني عن أخباري، وماذا أفعل، وأين أقيم، وغيرها من الاسئلة الشخصية، التي كنت أجدها مقلقة، والتي، في نفس الوقت، كنتُ، كليبي، أعرف أنّه لا فكاك منها. أجبته على أسئلته باقتضاب شديد. دخلّنا في حديث عن كرة القدم. وعرفت أنه مشجع متعصب لفريق أرسنال. بعد قليل وصل صديقنا المشترك صلاح، وأعدّ لنا وجبة غداء شهية. منذ ذلك اللقاء الأول، توطدتُ بيننا آواصر صداقة يمكن وصفها، تجاوزاً، بأنّها طيبة نوعاً ماً. كنّا نلتقي لماماً، لكنّنا ظللنا على اتصال بالهاتف بشكل مستمر. أول مرة زرته في شقّته، في «هانزلو»، كانت بعد أكثر من سنة على لقائنا الأول. كان يقيم في منطقة سكنية شعبية جداً، في شقة صغيرة «تضيّق الخُلوقْ.» عرّفني بصديقته «تريسي»، شابة انكليزية تتحدث بلكنة شمالية واضحة، وتعمل في صالون حلاقة، قريب من محل سكنهما. بعد فترة قصيرة، على تلك الزيارة، نجح أحمد في الحصول على عمل بشركة كبيرة معروفة متخصصة في بيع مواد بناء. وبدأت أحواله المادية في التحسّن بشكل ملحوظ. وتمكّن مع صديقته من الحصول على قرض مصرفي، وشراء بيت جميل في منطقة محترمة. الغريب أنّني مع تقادم الوقت، وتقلّبات الأيام، اكتشفت أنّه عنيد كثور، ومتطرف في آرائه بشكل يجعلني، أحياناً، أغلي من الغيظ. ما يعجبني فيه أنّه شديد الولاء لأصدقائه، ولا يتوانى عن تقديم المساعدة لهم. طويل القامة، وأسمراني، وزير نساء، الأمر الذي سبّب له الكثير من المشاكل مع تريسي، والتي، وبعد أن أعياها الصبر،

اضطرت لطرده من البيت كليةً، ولم تسمح له بالعودة أبداً. بقيَ عدة شهور يعيش مع صديق له في شقّة بمنطقة «ويلزيدين غرين» ثم وقع في عشق سيدة عربية من سوريا، واقترن بها، وأنجبت له ولداً وبنتاً، وما زالا يعيشان مع طفليهما، في شقّة متواضعة، مؤجرة من المجلس البلدي في منطقة «بادنجتون».

حين التقينا، ذلك النهار غير المحايد جـداً، في «بتني بريدج»، كان العالم كله يردد: «هالو أُوباما باي باي بوش». شغلنا، أنا وأحمد، الحديثُ في السياسة، ثم عنّ لي الذهاب إلى دورة المياه لتفريغ مثانتي. حين عدتُ، وجدت أحمد قد تخلّى عن مكانه في البار، وتحوّل للجلوس حول منضدة، ومستغرقاً في قراءة قائمة الطعام. سحبتُ كرسياً، وجلست قربه، والتقطت قائمة الطعام، وبدأت في اختيار ما يروقني منه. جاء النادل وسجل ما طلبنا من أكلات في دفتر صغير. انصرف وعاد، بعد لحظات، بالمطلوب. سألني أحمد إن كنت مازلتُ أذكر صديقاً له، اسمه رضوان، التقيته أكثر من مرّة، في الماضي، مع أحمد. أجبت بالايجاب. قال لي إنّ رضوان يعيش أزمة نفسية حادة، وأنّه يقيم، الآن، في مصحّة نفسية، وأنّ أحواله لا تسرّ بعد أن طردته زوجته الانكليزية من البيت، وحرمته من رؤية أولاده. سألته عن السبب. قال لي إنّه لا يعرف تماماً السبب، أو الأسباب وراء ذلك. قال أيضاً، إنّه لم يفاجأ بما حدث، لأنّه لاحظ، منذ فترة، أن رضوان بدأ يفقد اتزانه، ويقوم بأفعال غريبة، كأن يترك بيته مساءً، ولا يعود لأيام. وأنّه في إحدى الليالي الممطرة والباردة، أحضرته سيارة دورية شرطة إلى البيت، وهو في حالة مزرية، بعد أن وجدوه مستلقياً، على قفاه، في عرض طريق عام!

تابعتُ، والحزن يعصف بقلبي، الانصاتَ له، وهو يحكي، بمرارة، عن رضوان وأحواله. أذكر أنّني، تلك اللحظة، تضرّعت إلى الله، في سرّي، ألاّ يعرضني لتجربة مثل التي يمرّ بها رضوان وغيره. وأن يمنحني صبراً وعزماً وقوة، حتى أتمكّن من الخروج من نفق غربتي بسلام. تذكّرت أنّني، وأحمد، ورضوان، وغيرنا، من آلاف المهاجرين الذين تزدحم بهم المدن البريطانية، وغيرها من مدن العالم الأخرى، لسنا سوى ضحايا لزمن مقيت، وقاس، ورديء، انتزعنا من جذورنا، «في ليلة بلا قمر»، ورمانا، بلا رحمة، في محيط متلاطم الأمواج، وظل، عن بُعد، يتفرج علينا، مبتسماً بشماتة، ونحن نصارع، لاهثين من التعب، كي لا يجرفنا الموجُ بعيداً، ويلتقمنا حوتُ النسيان.

عقب الانتهاء من الغداء، غادرنا المطعم، قبل بدء ساعة الازدحام المسائية في الطرقات، ووسائل المواصلات العامة، وودّعت أحمد، خارجه، واتجهت على قدميّ، إلى محطة قطارات الأنفاق، القريبة، قاصداً العودة إلى شقّتي في «ويمبلدون».

لم يكن القطار مزدحماً. اخترت مقعداً شاغراً، وجلستُ، مفكّراً، في شكل تضاريس الرواية التي سأقدم، قريباً، على تأليفها. تراءى لي أنّ لندن، وليس طرابلس، هي المكان الأنسب والأكثر إثارة لإحداثها ووقائعها. كما أنّ شخصياتها الرئيسة لابد أن تكون قد جرّبت العيش في مدينة كبيرة، ومثيرة، ومعقدة، مثل لندن، واكتسبت شيئاً من سماتها، وأمتزجت بتلوناتها العديدة، وعاشتْ تناقضاتها الصارخة، وأدركتْ معنى الركض والقفز، واللهاث، خلف حافلاتها وقطاراتها، والتسكع في مقاهيها، والتصعلك في حاناتها، ونواديها، وذاقتْ معنى مرارة الوحدة، والوحشة، والغربة، في زحام وضجيج شوارعها ولياليها، وأيضاً، وهو المهم، تَعلمتْ قراءة وفهم أبجديات مزاجها وتقلّباته.

توقف القطارُ في «ويمبلدون».

غادرتُ المحطة.

نهار مربكٌ ومتعبٌ جداً

من دون كل الأسماء، التي كانت تُعرف بها بيوتُ جيراننا، بزنقة الحُمّاصْ، بالمدينة القديمة، بطرابلس الغرب، كان اسمُ البيت الذي ولدتُ فيه، وأينعتْ بين جدرانه طفولتي، وتألقَ في أرجائه خفقُ صباي، بمثابة اللغز الذي أقضّ مضجعي، وأرهقني لسنوات.

كان حوش «إمْعيزه» اسم البيت الذي كان يقابل بيتنا، ويملكه، رجل عجوز، غريب في طباعه. إلى يمينه، من جهة وسعاية بوراس، كان حوش الجبالي، ويليه حوش التويجيري، وإلى يساره كان حوش الشكشوكي، ويليه حوش القزله، ثم حوش الحاراتي. بيتنا كان معروفاً باسم «حوش بيشّي»، ورقمه 53. كان أول بيت، يقع على يمين الداخل للزنقة، من جهة وسعاية بوراس، وتملكه سيدة عجوز. البيت الذي يليه، كان يعرف باسم حوش الدُبّار. لماذا سُمّيَ بيتنا بذلك الاسم، ومن كان «بيشّي» الذي ظل البيت يحمل اسمه؟

كان بيتاً عربياً قديماً، مثل غيره من آلاف بيوت الفقراء، في المـدينة القديمة. يحتوي على وسط حوش واسع، مبلط بالاسمنت، وسقفه مفتوح على السماء، وبه ماجن لتخزين ماء المطر، وبئر يستخدم ماؤه في غسيل الملابس، وأعمال التنظيف المنزلية الأخرى. ماء الشراب كنا نجيء به من حنفيتين عموميتين، واحدة تقع بوسعاية بوراس، والأخرى في نهاية زنقة الحُمّاص. بالبيت سبع حجرات، ستٌ منها مؤجرة إلى ست عائـلات مختلفة، وأقامت مالكة البيت، في الحجرة السابعة، مع ابنها.

لمّا دار الوقت، و«دِرتْ رجْلين»، وتجاسرت على مغادرة البيت «بروحي»، واللعب مع بقية الأطفال، أندادي في الشارع، اكتشفت، رغم صغر سنّي، أنّه كان أمامي خياران: أن أتجه يميناً، نحو بداية زنقة الحُمّاصْ، باتجاه حومة غريان، أو أتجه يساراً نحو وسعاية بوراس. الفرق بين الاثنين أن الزنقة كانت، ومازالت، وستبقى زنقة، وأن الوسعاية، كما يدل على ذلك اسمها، براح واسع ومغر، ولا يمكن، تحت أي ظرف من الظروف، أن يبدّل طفل غواية اللعب في وسعاية كبيرة، بضجيجها وصخبها، باللعب في زنقة تضيّق الخاطر، لا يزيد عرضها، في أفضل الأحوال، عن مترين، وطويلة «زي المصارين الرقاق.» كانت وسعاية بوراس الوسعاية الوحيدة في كل المناطق، والأحياء المجاورة لها في المدينة القديمة، الأمر الذي يمنح غيرنا من الأولاد، في بقية المناطق والأحياء المجاورة، الحق في الشعور نحونا بالحسد، لأننا الوحيدون، الذين كنّا نحظى ببراح متسع يمكّننا من اللعب، براحة، كل أنواع الالعاب المعروفة، وخاصة كرة القدم.

بعد مرور سنوات على ذلك، اكتشفت أنّني ولد «وسعاية بوراس»، وأن أولاد الوسعاية، ليسوا «أولاد الحارة الصغيرة، أو الكبيرة، أو الوسطيا» وليسوا أولاد «باب البحر» أو «كوشة الصفّار».

كان يوم الجمعة، هو اليوم الذي كان يلتقي فيه أولاد الوسعاية للذهاب للسينما. كنّا نتجمع في وسط الوسعاية، بعد انقضاء صلاة الجمعة، وتناول وجبة الغذاء، ثم نتحرك معاً في مجموعة لا يقل عدد أفرادها عن العشرة، باتجاه سينما الرشيد بميدان 9 أغسطس، أو نحو سوق الترُك حيث سينما النصر. أحياناً، كنّا نمضي إلى سينما الرويال، أو الهمبرا في ميدان الشهداء. خلال تلك الفترة، تعرّفت بعنترة بن شداد. كنتُ قبل مشاهدة الفيلم، قد سمعتُ الكثير جداً من الحكايات عن «عنتر» بن شداد. لكن سماع الحكايات شيء، ومشاهدة «عنتر» في فيلم شيء آخر. أذكر أنّني عقب مشاهدة الفيلم، كنت ماراً، يوماً، بشارع الرشيد، قرب جامع أبورقيبة، حينما مررت برجل عجوز، جالساً، تحت الأقواس في الظل، ويعرض كتباً قديمة للبيع، معروضة على بسطة فوق الرصيف. دفعني الفضول إلى إلقاء نظرة على ما يعرض من كتب أمامي. استرعى إنتباهي كتاب مجلد، وقديم، بعنوان «عنترة بن شداد». رفعتُ الكتاب من مكانه، وتصفّحته. سألت البائع العجوز عن ثمنه. قال لي قرشان. كان معي، في جيب بنطالي، قرش ونصف. بعد مماحكات، رضي العجوز أن يبيعني الكتاب بقرش ونصف. أذكر أنّني قرأت ذلك الكتاب، مرّات لا تعدّ، وكنت أحمله معي إلى المدرسة. وفي ذلك الكتاب العتيق الرخيص، تعرّفت بالملك النعمان بن المنذر، ملك الحيره. عرفتُ أنّه كان ملكاً يتميز بعادة غريبة جداً. إذ عُرِف عنه أنّه كان له يومان في السنة: يوم فرح، ويوم حزن. كان سعيد الحظ من يلتقي النعمان في يوم فرحه، وكان تعيس الحظ جداً من يلتقيه في يوم حزنه!

بعد أكثر من أربعة عقود من الزمن، على قراءتي لذلك الكتاب، تذكّرته، (لا أعرف كيف؟)، ذات يوم، وأنا جالس على مقعد في قطار متجه من محطة «كلابهام جانكشن» في لندن، قاصداً مدينة «برايتون» للقاء أطفالي. ولدهشتي، اكتشفت أنّ الفرق بيني وبين النعمان بن المنذر، باستثناء تاج المُلك والسلطان، هو أنّ يومي فرحي وحزني إلتقيا في كل يوم سبت، من كل أسبوع. إذ منذ فراقي من زوجتي الانكليزية، لم أعدّ أرى أولادي، والتقي بهم، وأحظى بقضاء بعض الوقت معهم إلاّ في أيام السبت. لذلك، فانّني صباح كل سبت، أشعر بفرح لذيذ يغمر قلبي وبدني، حتى أحسُّني أستحلت نورساً من حنين، وأكاد، من شدّة شوقي لهم، أتمنّى لو تمكّنت من قطع المسافة بين لندن وبرايتون طيراناً. في المساء، حين يحين موعد عودة الأولاد إلى أمهم، أحس بقلبي، في صدري، يتشقق حزناً، ويعتريني غضب شديد. ولأنّني لم أكن ملكاً كالنعمان بن المنذر، يملك النوق العصافير، ويهابه الناس، لم يكن أمامي من حل سوى تعلم امتصاص غضبي، على جرعات متفاوتة الحجم، وتعلّم العيش مع ما يمور في قلبي من مرارات، وإحباطات، وأحزان كما يفعل عباد الله من المساكين، والفقراء، والغرباء، والضعفاء أمثالي.

ذات سبت ما، في برايتون، بينما كنت في المارينا، ألعب (البولينغ) صحبة أولادي، رنّ جرس هاتفي المحمول. كان صديقي سعيد، الذي يعيش في مدينة مانشستر. بعد التحيات والسلامات، أبلغته بما أنا فيه، ووعدت أن أهاتفه، مساءً،

وأغلقت الهاتف. إلاّ أن سعيداً هاتفني مجدداً. قال لي إنّه يأسف على ازعاجي، لكنّ الأمر طارئ، وهو في أشد الحاجة للمساعدة. أستأذنت من أولادي، وأنتقلت إلى مكان هادئ قليلاً، يمكنني فيه سماع سعيد براحة والحديث إليه. قال لي سعيد إنّ ابن عم له، اسمه رمضان، ويعمل طبيباً في طرابلس، وسبق له الدراسة والعمل في بريطانيا، اتصل به، ظهيرة ذلك اليوم، ليبلغه أنّ زوجته استغلت فترة وجوده للعمل خارج طرابلس، وخطفت ولديهما وفرّت، راجعة إلى لندن، في اليوم السابق. وإنه يود مساعدتي في الاستعانة بمحام يمكّنه من استرجاع ولديه، وأنّ الزوجة لم تعد تهمه في شيء. قلت له إنّه ليس بامكان محامين فعل شيء، لأنّه ليس في مقدور أحد منع امرأة وولديها من العودة إلى بلادهم. قال لي بصوت ينمّ عن حسرة وفجيعة، إنّ الزوجة ليست انكليزية، بل ليبية الأصل! وإنّها لم تعد ترغبُ في العيش في ليبيا، وأنّ سنوات الاقامة الطويلة، صحبة زوجها الطبيب في بريطانيا، مكّنتها من الحصول على اقامة دائمة، كما أنّ ولديها يحظيان بجوازي سفر بريطانيين. أعترف أنّ دهشة غريبة، ومرّة المذاق، غمرتني وألجمتني. سمعت صوت سعيد في الهاتف يؤكّد لي بأنّه سيرسل إليَّ بكافة المعلومات عن الزوجة والولدين مفصّلة عبر البريد الالكتروني. رجعت إلى حيث أولادي، وواصلت اللعب معهم.

لدى عودتي إلى لندن، عقب توديع أولادي، جلست، على مقعد في قطار مزدحم بالمسافرين، كالعادة، واجماً، حزين القلب، موزّع الفكر. تركت عينيَّ تتريضان في براح المروج الخضراء، التي كان يعبرها القطار لا مبالياً. فكّرتُ في المصيبة الجديدة التي ألقى بها سعيد على رأسي. تساءلت عما يمكنني فعله، ومن أين لي بالوقت والجهد كي أجد محامياً يمكنه ارجاع ولدين إلى أب مسكين؟ فكّرت في تلك الزوجة التعيسة التي تركت زوجها، وأهلها، ووطنها، وقررت الهجرة، والعيش في بلاد غريبة، وباردة، ومعاناة غربة قاسية، مع ولدين صغيرين. أعياني التفكير، فأغمضت عينيَّ محاولاً النوم، حتى يصل القطار محطة «كلابهام جانكشن».

حين وصلت شقّتي في «ويمبلدون»، كان الليل قد أرخى سدوله، وأزداد الطقس برودة. توجّهت، من فوري، نحو المدفأة الكهربائية، القابعة في غرفة الجلوس، وضغطت على زر التشغيل. اتجهت نحو المنضدة، التي يستريح فوقها جهاز الهاتف، وضغطت على زر تشغيل جهاز التسجيل الصوتي. سمعت صوت أخي الاصغر، وهو يرسل لي من طرابلس بالسلامات، والسؤال عن الحال، ويبلّغني بانشغال أمي عليَّ، لأنني لم أتصل بها هاتفياً منذ مدة. الرسالة الصوتية الثانية كانت من صديقتي «جولي»، تستفسر مني حول عدم حضوري للمظاهرة التي أقيمت أمام السفارة الاسرائيلية أحتجاجاً على العدوان على غزة. الرسالة الصوتية الثالثة، كانت من صديقي مجيد، يرجوني فيها الإتصال به. رفعت سماعة الهاتف، ونقرت رقم هاتف مجيد فوصلني صوته يشكرني على الإتصال. بعد السلامات والاسئلة العادية، حكيت له قصة المرأة الليبية التي فرّت بولديها إلى لندن. ضحك مجيد بصوت عال، ثم قال لي إنّه يهنئ تلك المرأة على قرارها الجريء، وعلى شجاعتها. قال إنّه من الأفضل لتلك السيدة الفرار للعيش في بريطانيا، لأنّها، على الأقل، سوف تضمن لولديها تعليما جيداً، ورعاية صحية، بعيداً عن عفن الفساد. قلت له إنني أريد مساعدته في العثور على محام جيد، يتولى الدفاع عن حق الزوج في استرجاع ولديه. قال لي إنّ الأمر ليس سهلاً، كما أتصور، لأنّ الولدين قاصران، لذلك،فإنّ القانون يقف إلى جانب الأم، ويمنحها الحق في الإحتفاظ بهما. وأنّ الاستعانة بمحام مكلفة مالياً. لكنّه قال إنّ زوجته تعرف محامية جيدة،

وسوف يحصل لي منها على اسمها وعنوانها ورقم هاتفها. ودّعته، وأعدتُ السماعة إلى مكانها، وجلستُ على الكنبة التي تواجه جهاز التلفاز. التقطتُ جهاز التحكم عن بعد، وضغطت على زر التشغيل. بعد جولة سريعة بين القنوات المتوفرة، ضغطت على زر الإغلاق. نهضت من مكاني، اتجهت نحو المكان المخصص للاشرطة، في رفّ معلّق، على الجدار القريب من جهاز التلفاز. اخترت شريطاً قديماً وألقمته في جهاز التسجيل، ثم ضغطت على زر التشغيل، وعدت إلى الجلوس في مكاني على الكنبة.

صدحتْ فيروز.

نهارٌ عسير على القلب

حكاية مجيد حكاية.

كان هو أولُ ليبي التقيته، لدى وصولي، مطار لندن – هيثرو، دون سابق معرفة. كان متواجداً هناك، لأنّه قام بتوصيل صديق له إلى المطار في طريقه إلى طرابلس، عائداً على نفس الطائرة التي أقلتني إلى لندن. لدى انتهائي، من إجراءات الدخول الرسمية، خرجتُ إلى صالة المطار، وتوجّهت، مباشرة، إلى الزاوية المخصصة للمدخنين. وضعتُ حقيبتي إلى جواري، وجلستُ على مقعد، وأشعلتُ سيجارة، وبدأت أنفث أنفاسها. لدى انتهائي منها، أشعلتُ أخرى. رأيتُ شاباً، معتدل القامة، بعينين سوادوين، وتسريحة شعر قصيرة، يدخل المقصورة المخصصة للتدخن. انتابني أحساس بأنه ليبي. وقف قريباً من حيث أجلس، وأخرج علبة سجائره، وسحب منها واحدة، وضعها بين شفتيه، ثم إلتفت نحوي، وكلّمني باللهجة الليبية، طالباً بأدب استعارة ولاّعتي. كانت الولاّعة في يدي اليسرى فمددتها له دون كلام. أخذ منّي الولاّعة، وشكرني. أشعل سيجارته، وأعاد لي الولاّعة، وشكرني مرّة أخرى. إلاّ أنّني لم اطق صبراً، فسألته: «كيف عرفت أني ليبي؟» ابتسم، وقال لي «حاجة والله كبيرة!» وأضاف: «أنا واثق بأنك وقت شوفتني، وأنا داخل، عرفت أني ليبي.» بدون تردد هززت رأسي عمودياً. ضحك مجيد، وعلّق متسائلاً: «باهي كيف عرفت أنّي ليبي؟» واستطرد مجيباً على سؤاله: «الماركة الليبية ياصاحبي معروفة، وين ما تقابلك تعرفها على طول.» ثم سألني: «جاي وإلاّ ماشي؟» قلتُ له إنّني وصلت، منذ ساعة تقريباً، من طرابلس، وفي طريقي إلى لندن، بعد الإنتهاء من تدخين سيجارتي. سألني مرة أخرى «زيارة أو دراسة أو علاج أو فَشّانْ اقْمُمْ؟» ضحكت لدى سماعي تعبير (فشّان اقْمُمْ). قلت له إنّ الأمر، حتى الآن، لا يتجاوز أن يكون زيارة، وبعدين «كل ساعة وعِلْمها.» ضحك مجيد ضحكة خبيثة، ورد متسائلاً: «صار بعدين كل ساعة وعلمها؟» انزعجت من ضحكته، وأنتابني احساس بالندم على تسرّعي في التبسط في الحديث مع شخص لا أعرفه، ولم التقه من قبل. أطفات سيجارتي. نهضت من مقعدي. مددت يدي لاسلّم عليه مودّعاً. لم يمد يده إلى يدي المبسوطة نحوه. نظر إليّ نظرة مؤنّبة وتساءل: «وين ماشي؟» أجبته بأني : «ماشي على حالي». طلب منّي أن أنتظر قليلاً حتى ينتهي من تدخين سيجارته، ليكون بامكاننا المغادرة معاً، وتوصيلي بسيارته إلى مقصدي. ترددت قليلاً في القبول، لكنّي التزمت الصمت. ألقى بعقب سيجارته في المنفضة القريبة مني، ثم غمز لي بعينه اليمنى، والتفت نحو الباب وخرج. حملت حقيبتي في يدي وتبعته.

جلست إلى جانبه في سيارته، ماركة فولفو سوداء اللون، وعيناي على الطريق. كنتُ أحسُ نبض قلبي يتقافز في صدري، كأرنب حديث الولادة، يغادر، للمرّة الأولى، جحره المعتم الرطب، ليمرح في الهواء الطلق، ويقرض بأسنانه الصغيرة

طراوة العشب، بعيداً عن رقابة أمه. فتح مجيد مذياع السيارة، وحرّك زر الموجات حتى وقع على محطة تنقل مباشرة وقائع مباراة في كرة القدم. سألته عمن يكون الفريقان المتنافسان، فقال لي إنهما ليفربول ومانشستر يونايتد، ثم سألني من أشجع منهما. أجبته أنّني، في السبعينيات، كنت أحرصُ على مشاهدة مباريات فريق ليفربول في بطولة الأندية الاوروبية. قال لي مازحاً إنّه لو كان عرف ذلك من قبل لما وطأت قدماي سيارته. قلت في نفسي: «ما أبهج هزل إخواني الليبيين!». تابعنا سماع نقل المباراة، إلى أن بدأت معالم لندن تلوح في الأفق. التفت مجيد نحوي، وسألني عن المكان الذي أقصده. أخرجت من جيب سترتي ورقة مضمومة فتحتها، وقلت له إنّني أنوي الاقامة في فندق صغير، في منطقة بادنجتون. سألني إن كنت حجزت غرفة أم لا. أجبت بالنفي. طلب مني أن أنسى موضوع الفندق، لأنّ لديه شقّة خالية، بامكاني الإقامة فيها لمدة أسبوع. أعترف أنّني تحيّرتُ من تصرفه. فالرجل لم يعرفني إلاّ منذ ساعة فقط، وهاهو يعرض عليَّ استضافتي في شقّته لمدة أسبوع. قلت في نفسي: «مازال في الدنيا خير».

الشقّة تقع في منطقة «بارونز كورت.» جميلة، وتتكون من حجرتي نوم، وصالة أكل، وصالة جلوس. وضعت حقيبتي على أرضية صالة حجرة الجلوس، وطفت بأرجاء الشقّة. طلب منّي أن أخرج معه للسوبر ماركت القريب لشراء ما أحتاجه من لوازم. غادرنا الشقّة، وخرجنا. منذ ذلك اليوم ظل مجيد جزءاً لا يتجزأ من تفاصيل حياتي.

أذكر أنّني، خلال ذلك الأسبوع الأول، سألته، ذات مرّة، عن قصة مجيئه إلى بريطانيا فلم يرد على سؤالي. أعدت السؤال فردّ قائلاً: «كل شيء في وقته حلو». عرفتُ، فيما بعد، كل ما أريد معرفته عنه. قصة طويلة ومؤلمة، مثل غيرها من قصص الأصدقاء والأصحاب الآخرين. قال لي، مرّةً، إنّه لدى بلوغه سن الخامسة عشرة، كان طالباً في نهاية المرحلة الاعدادية، حينما «طاح للْعَكْسَه»، وبدأ التدخين والهروب من المدرسة. قبل بدء الامتحانات النهائية بشهر، هرب من البيت، وألتحق بالجيش. قال لي إنّه حين يتذكّر ذلك يشعر بالندم بسبب الألم الذي سبّبه لوالديه. عقب إنتهائه من فترة التدريب الأساسي، أُلحق بوحدة عسكرية في منطقة الهضبة الشرقية، بطرابلس. وبعد حوالي شهرين من التحاقه، طَلَبَ منهم آمر الوحدة، في يوم 6 أبريل 1976، الحضور إلى المعسكر، في صباح الغد، الذي يوافق 7 أبريل، مرتدين زيّاً مدنياً، ولم يقدم تفسيراً لذلك. لكنه في اليوم التالي، حضر طابور الجمع الصباحي، وأبلغهم أنّهم في طريقهم للمشاركة في «تطهير الجامعة من الرجعيين والخونة المندسين في صفوف الطلبة.» قرابة العاشرة صباحاً، استقل مع أفراد وحدته حافلات أقلّتهم إلى الجامعة. ولما وصلوا محطة وقوف السيارات الخاصة بكلية التربية، غادروها جميعاً، ووجدوا في انتظارهم ثلاثة أشخاص قادوهم جميعاً إلى ساحة كلية الهندسة. وهناك طلبوا منهم الوقوف في مكان محدد، وانتظار الاشارة بالهجوم والانقضاض. قال مجيد إنّ الساحة كانت مليئة بطلبة وطالبات من المدارس الثانوية، أُحْضِروا من مدارسهم، بحجة أنّ قائد الثورة قادم لالقاء خطاب في الجامعة. كانت مجموعة من الأشخاص تقود هؤلاء الطلبة، في مسيرات تطوف بساحة كلية الهندسة، هاتفة بسقوط أعداء الثورة. وفي أقصى الساحة، قرب مباني الأقسام الداخلية، المخصصة لإقامات الطلبة، كانت مجموعات من طلبة الجامعة متجمعة تراقب المشهد.

قال: «من حيث لا أدري رأيت سيارة بيجو بيضاء موديل 504، وبها شخصان تدخل ساحة كلية الهندسة، بسرعة كبيرة، وتتجه نحو الجهة المقابلة، حيث يقف تجمّع طلبة الجامعة، وكأن سائقها كان يريد استفزازهم، أوتخويفهم، وتفريقهم. فتصدى الطلبة لها، ورأيتُ أحدهم يمسك بقضيب حديدي، ويهوي به، بقوة، على الزجاج الأمامي للسيارة، فتهشّم الزجاج، ووقفت السيارة عن الحركة، ثم بدأت الحجارة في التهاطل من السماء كالمطر. فرّ طلبة وطالبات المدارس الثانوية، وأنتشر الفزع والصراخ، وبدأت حرب حجارة لا هوادة فيها. وكنتُ مع أفراد وحدتي نقاتل بضراوة. وقمنا بمهاجمة الأقسام الداخلية في الجامعة، وضرب الطلبة بوحشية. قرابة الساعة الثالثة ظهراً، كانت المعركة محسومة لصالح جماعات النظام. وتمّ تجميع الطلبة والطالبات المقبوض عليهم في حافلات، وارسالهم إلى السجن في مركز شرطة الاوسط. عندها عدتُ وأفراد وحدتي إلى المعسكر. بعد يومين على الحادثة، سمعتُ أن اثنين من أولاد خالي كانا من ضمن المقبوض عليهم، وصدر لاحقاً قرار بطردهم من الجامعة. قال لي إنّه لدى سماعه الخبر ذهل كمن أصابته صاعقة، لأنّ الولدين من أنعم الناس خلقاً وأدباً، وذكاءً كما أنّهما من عائلة، مثل عائلته، فقيرة وينتمون للشرائح التي قامت الثورة من أجلها. أضاف قائلاً بأسى إنّه، تلك اللحظة، فقط، أدرك فداحة الجريمة، التي شارك فيها مع أفراد وحدته، كما شعر بالأسف للألم الشديد، والآذى الذي ألحقه بخاله وعائلته، خاصة بعد الافراج على الولدين من السجن، وبقائهما في البيت دون عمل أو دراسة. أعترف لي مجيد أنّه لم يخبر خاله بدوره في الأحداث إلى يومنا هذا. بعد حوالي سنة على الحادثة، تمكّن مجيد عن طريق صديق يعمل مُخلّصا جُمركياً، في ميناء طرابلس البحري، من الاتفاق مع قبطان سفينة بضائع بولندية على تهريبه من البلاد، مقابل خمسمائة دولار، دفع له نصفها وقتياً، على أن يتم دفع النصف المتبقي لدى وصوله إلى بولندا. في اليوم المحدد، ذهب مجيد إلى الميناء، وأتضح له أن سفينة النجاة رحلت بدونه، منذ مساء اليوم السابق. بعد مرور عام، أو أكثر، على الحادثة، وجد نفسه يصارع رمال الصحراء الكبرى، وشمسها اللافحة، وسط كتيبة عسكرية مسلحة ضمن جيش ليبي مجحفل يخوض حرباً في تشاد. خلال احدى المعارك أُصيب بشظية قنبلة مورتر في بطنه، ونقل بطائرة عسكرية إلى طرابلس لتلقي العلاج. كانت إصابته شديدة، إلاّ أنّه تمكّن من النجاة، والعيش طليقاً بعد تسريحه من الجيش. واتته الفرصة، مرة أخرى، بعد أشهر قليلة، حينما تمكّن أبوه، عبر وساطة من قريب له، من ارساله لسويسرا لإجراء فحوصات طبية، على حساب الحكومة. قال لي مجيد إنّه لدى صعوده الطائرة، في طريقه إلى زيوريخ، جلس في مقعده المخصص له حتى تحركت الطائرة، وأقلعت في الجو. عندها ألقى، من خلال زجاج النافذة، نظرة أخيرة على طرابلس. قال مجيد: «عندما وصلت الطائرة مطار زيوريخ، وغادرتها مع غيري من المسافرين، وقفتُ في ردهة المطار وحيداً في انتظار انهاء الاجراءات الأمنية. لكني كنت أقول لنفسي يامجيد ياولد زُهرة بنت الحاج عبد العال، لقد دخلت حرباً، والتقيت بالموت وجهاً لوجه، وذقت الويلات لكنّ الله كتب لك السلامة. لذلك فإن ما ستواجهه في غربتك التي اخترتها وستبدأها منذ الآن، لن يكون، في أسوأ الأحوال، باسوأ مما رأيتَ، وعانيتَ، وجرّبتَ. وليس أمامك الآن من خيار سوى الاتكال على الله، وبدء حياة جديدة..» قال مجيد ضاحكاً: «الرحلة ابتدأت في سويسرا، وبعد عام وجدتني في لندن، ومازالت العجلة تدور.»

عقب نهاية الأسبوع، تركتُ مجيداً ولندن، وذهبت للإقامة في برايتون أولاً، حيث تركتها بعد سنة لمواصلة دراستي الجامعية في جامعة ريدينغ. خلال كل هذه الفترة، كنّا على إتصال مستمر بالهاتف. كما كنّا نلتقي كلما جئت في زيارة إلى لندن. وكان، دائماً، يصرّ على دعوتي للعشاء، والإقامة في بيته. ولمّا تعرّف بزوجته الحالية قدما معاً لزيارتي في ريدينغ، ثم، فيما بعد، حضرتُ حفل زفافهما في لندن ذات ليلة مشهودة.

بدأ مجيد حياته، في لندن، مثل غيره من المغتربين الفارين من محرقة أوطانهم، عاملاً في شتّى أنواع المهن، من غسل الأواني في المطاعم، إلى أعمال البناء الشاقة، إلى أن تعرف، ذات يوم، بشاب سوري مهاجر، يكبره سنّاً وخبرة، ويشتغل ببيع السيارات المستعملة، حيث صارا صديقين، ثم شريكين في العمل. ومع مرور الوقت، تمكّن الاثنان من فتح وكالة لبيع وتأجير السيارات في منطقة «كريكل وود». وبعد سنوات على ذلك، قرر الشريك السوري العودة إلى بلاده. فأشترى مجيد حصّته، وصار المالك الوحيد للوكالة، وفروعها العديدة في مختلف مناطق لندن.

لكنّ مجيداً، رغم تغير أحواله الماديه وامتلاكه للوكالة ولكثير من العقارات، ظلّ كما عهدته صديقاً مخلصاً، ووفياً، وكريماً، خاصة في تعامله معي. كنّا، عقب انتقالي للعيش والعمل في لندن، كثيراً ما نلتقي ونسهر معاً. وكان، دائماً، حريصاً على دفع كل فاتورة السهرة لوحده. كان يقول لي: «إننا نشبه لاعبي كرة قدم، طردهما الحكم، خلال المباراة، بالبطاقة الحمراء، وحرمهما من حق إكمال المباراة إلى نهايتها، إلاّ أنّ الحظ شاء لهما العودة، مجدداً إلى المباراة واستكمال اللعب. أنتَ كنتَ في سجن من المفروض ألاّ تخرج منه حيّاً، وأنا خرجتُ من معمعة حرب كاسرة وخاسرة شبه ميّت، ثم ارتضت مشيئة الله أن نلتقي في أرض غريبة، ونقتسم معاً العيش فيها». وكنتُ أضحك حينما أسمعه يردد ذلك، وأقول له ياصديقي العزيز كل ما ذكرته صحيحاً، لكنك دائماً تنسى أنّنا عدوان لدودان كُرويّاً، لأنّك تشجّع فريق مانشستر يونايتد وأنا أشجّع فريق ليفربول!

فاض وجدي.

نهارٌ مخاتلٌ جداً

غادرتُ دفءَ ووحشةِ شقّتي، قرابة الظهر، في يوم أحد. وسرتُ، على قدمين واهنتين، متمهلاً، وحيداً، لا ألوي على شيء، باتجاه محطة قطارات ويمبلدون، حين لمحته، صدفةً، في الكسندرا روود، ملتحفاً صمته، وقابعاً وحيداً، على إفريز نافذة شقّة، في الطابق الأول، من مبنى قديم. وقفتُ، مشدوهاً، غير مصدق. أحسستُ بتسارع دقات قلبي، وشعرتُ بموجة من حنين، ونور شفيف كالطفولة، تلمس بنعومة شغافي. صرختُ بصوت هامس: «مَحْبِس نُوارنا!».

للحظة، أعتقدت أنّ صديقاً من أصدقائي أراد المزاح معي، قد أزاحه من مكانه في شرفة شقتنا، في الظهرة، بطرابلس، وأحضره معه إلى ويمبلدون، بجنوب غرب لندن، ووضعه، عمداً، على إفريز تلك النافذة الصامتة، في مؤامرة قصد بها خلخلة ما تبقى صامداً من دفاعات حنيني.

كان، مثلي، وحيداً، مستريحاً، مدثّراً بهدوئه، تحت سماء مشمسة وباردة، في مبنى قديم، في شارع طويل، وخالٍ من المارّة، بعيداً عن طراوة لمسة يديّ أمي، وإطلالة وجهها، وهي تنحني بجسدها الهرم عليه، بود، كل يوم، تسقي عروق نعناعه المحرورة بالماء.

شيء ما تيقظ في داخلي، كنبع ماء قديم، غطته رمالُ الوقت، وفجأة، اشرأب بعنقه، من وسط الرمال، وفجّر في داخلي نوافير الذكريات.

مازلتُ، رغم تقلبات السنين، أتذكّر، بحميمية، مَحْبِس نُوارنا، قابعاً في زاويته المعهودة في الشرفة، وحيداً، مستكيناً، صيفاً وشتاء، محاطاً بصمت شبيه بصمت القبور.

فهل ياترى مازال يتذكرني؟

أم أنّه، متأثراً بتقادم الزمن وتلازم الغياب، صار، مثلي، هرماً، سارحاً، طوال الوقت، مقتفياً أثر ظلال طفولة لا ترجع؟

واصلت سيري، في الشارع الطويل الموحش، حتى وصلت نهايته المطلة على مفرق طرق في شارع ويمبلدون هيل روود. يميناً، تقود الطريق إلى هضبة عالية، تقود إلى ويمبلدون فيلج. يساراً، تمضي الطريقُ إلى وسط ويمبلدون، حيث «السنترال كورت»، ومحطة القطارات، ومحطات الحافلات، والحوانيت والمقاهي والبارات. أماماً، تؤدي الطريق إلى طريق يقود إلى ما لا أعرف. انعطفت يساراً، بعد أن تأكد لي أنّ مزاجي النفسي، وقواي المنهكة لا يسمحان لي بالسير و بصعود هضبة

عالية. حين وصلتُ قرب محطة القطارات، سمعت صوتاً أنثوياً يقول لي : «واشْ راكْ ياصُحْبَه؟» التفتُ فرأيتُ وجه صديقتي حسيبة، يبتسم لي بود. سلّمت عليها بحرارة، وسألتها عن أحوالها، وأحوال أفراد أسرتها. كانت حسيبة تردُّ، على أسئلتي، بابتسامة ودودة تفيض من وجهها. سألتني عن مقصدي، فأجبتها بأنّني تركت شقّتي للتمشي، وترويح النفس لا غير. قالت لماذا لا ترافقني إلى «ساوث بانك»؟ سألتها وما تفعلين هناك؟ قالت إنّها ذاهبة للقاء زملاء لها، في مقهى، تعودوا على الالتقاء فيه من حين لآخر. قالت، أيضاً، إنّني لن أندم لو رافقتها. جملتها الأخيرة جعلتني أقطع حبل ترددي. مشينا معاً إلى محطة القطارات.

صديقتي حسيبة، جزائرية، من العَلْمَة، بسطيف، تعمل في اذاعة البي بي سي، بالقسم العربي، محررة أخبار، وتعرفت بها منذ سنوات، في قاعة الكوفة، في شارع «وست بورن غروف»، بمنطقة «كوينز وي»، وصرنا أصدقاء خاصة بعد انتقالها للسكنى في ويمبلدون مع زوجها الانكليزي. لذلك كثيراً ما نلتقي في محطة القطارات.

استقلنا القطار، وجلسنا على مقعدين متجاورين. حكيتُ لها بالتفصيل الممل ما حدث لي مع محبس نوارنا. وحين انتهيت من قصتي سألتها:

– أهو الحنين؟

ضحكتْ حسيبة ثم سألتني:

– الحنين إلى فردوس مفقود أم إلى جنة موعودة؟

فاجأني سؤالها، قلت:

– ربما إلى كليهما.

رمتني حسيبة بنظرة أقل ما توصف به أنها «مُرّة»، ثم قالت بالانكليزية:

– من لا يستطع تحمّل الحرارة لا يدخل مطبخ! هل سمعت هذا المثل الانكليزي من قبل؟

أجبت بهزة من رأسي بالايجاب، وسألتها:

– ماذا تقصدين؟

قالت:

– علّمني العيش الطويل في هذه البلاد ألاّ أنظر ورائي. كل ما يهمني هو المستقبل. أنت حنينك إلى ماض أليم، وهذا يذكّرني بنوع من الناس الشاذين الذين يحبون تعريض أنفسهم للتعذيب. أنا حنيني إلى مستقبل أكثر إشراقا!

سألتها مستنكراً:

– والوطن يا حسيبة؟ والأهل والأحبة والطفولة والصبا؟

تساءلتْ حسيبة بصوت جاد:

– هل تسمي بلاداً يحكمها قتلةٌ ولصوصٌ وقوادون وطناً؟ هل تسمي بلاداً تُخصي فحولها وطناً؟ من يختار العيش في منفى عليه أن يتعلم أبجدياته. وأبجدية منفانا تبدأ بأن تدوس بقدم صلبة على قلبك، ثم تمضي للامام قُدماً، محرّماً على نفسك الإلتفات إلى الوراء. لا حنين إلاّ إلى المستقبل يا حبيبي.

– والأهل والأحبة والطفولة والصبا ياحسيبة.؟

– الله يكون في عونهم يا صُحْبَه.

تذكّرتُ، في تلك اللحظة، مقطعاً من أغنية قديمة لفرقة «جيل جلالة» المغـربية، يقول: «وغْدَادَ ما أنتَ ساير في الدنيا نيران في قلوب أحبابك مضرومة» رددت المقطع على مسمعها، وطلبتُ تفسيراً منها. ضحكت حسيبة وقالت إنّها لا تظن أنّ للمقطع علاقةً بما نحكي، ثم غيرتْ الحديثَ بسؤالي عن آخر مشاريعي الكتابية. وجدت الفرصة مناسبة لأحكي لها عن مشروع الرواية التي أفكّر في كتابتها. ولما انتهيتُ من ذلك، طلبتُ رأيها في الفكرة كامرأة وزوجة. ما زلت أذكر النظرة التي رمتني بها عيناها. سـألتني إن كنتُ جَاداً فيما قلت. فأكّدت لها ذلك، فلم ترد. سألتها رأيها مرة أخرى، فقالت لي إنّها لا تريد الخوض في الموضوع، لأنّ صراحتها سوف تسبب لي الكدر والحزن.

حين وصل القطار محطة لندن – واترلو، نهضنا من مقعدينا، وغادرنا القطار متوجهين إلى «ساوث بانك»، سيراً على أقدامنا. لم نتبادل كلمة في الطريق، حتى وصلنا إلى مقهى صغير، يقع في ناحية قريبة من النهر. رؤية النهر في استرخائه المعهود، والرتيب، دائماً تنعش قلبي، فأحس بالحبور يتسلل فرحاً كطفل إلى حنايا روحي. اتجهتْ هي، وأنا أتبعها، نحو منضدة، قريبة من الباب، يجلس حولها رجلان وسيدتان. أطلقتْ هي السلام، وسحبت كرسياً وجلستْ، ثم، وأنا مازلتُ واقفاً، قدمتني إليهم باسمي، ووصفتني بأني كاتب ليبي. فصافحت الجميع، وسحبت كرسياً، وجلست بين حسيبة وسيدة أخرى محجّبة، تبيّن لي، فيما بعد، أنّها عراقية من بغداد. السيدة الأخرى كانت من خرطوم السودان، والرجلان قاهريان، وكلهم يعملون في القسـم العربي «بالبي بي سي»، وكلهم، مثلي، تجاوزوا مرحلة الشباب. سألتني السيدة العراقية، واسمها دعد، عن عملي، وكم من السنوات قضيت في لندن. فأجبتها باقتضاب. قالت حسيبة لاصدقائها إن قصصي ومقالاتي تنشر بصحيفة عربية، تصدر بلندن، وإنّني مثلها أقيم في ويمبلدون. ثم التفتت لي، وطلبت مني الإذن في أن تقصّ على أصدقائها حكاية الرواية التي أفكّر في كتابتها. حين انتهت حسيبة من سرد الحكاية، التفتت دعد نحوي ضاحكة، وقالت لي إنّ الفكرة غريبة، كالليبيين أنفسهم! لكنّها تتمنى أن تقرأ الرواية. قال أحد الرجلين القاهريين، واسمه يسري، إنّه يعتقد أنّ رواية مثل التي أفكّر في كتابتها ستكون مثيرة ومشوقة، لأنّها، على الأقل، ستكون مفيدة بعض الشيء. وتحسّر ندماً لأنّني لم أكتب الرواية منذ عشرين سنة مضت، لأنّني، حسب قوله، لو فعلت ذلك لكان عرف كيف يتخلّص من زوجته منذ وقت

طويل. ضحك الجميع، لكني شعرت بشيء من خجل. سألتني السيدة السودانية، واسمها ندى، عن السبب وراء كتابة رواية بفكرة غريبة ومثيرة للريبة، وتساءلتْ لماذا لا أكتب رواية عن تجربة السنوات التي قضيتها في الغربة؟ تدخل الرجل القاهري الآخر، واسمه فؤاد، في الحديث، قائلاً إنّ ندى تخاف أن يقرأ زوجها الرواية. ضحكتُ مع الآخرين. قلتُ، باستحياء، إنّني كقاص قد وصلت مرحلة من العمر دون انجاز عمل روائي واحد. قلتُ، أيضاً، إنّ فكرة كتابة رواية عن سنوات تجربتي في لندن، وغيرها من المدن البريطانية، قد راودتني كثيراً، إلاّ أنّني وجدت أنّ الخوض فيها قد يأخذني باتجاه تكرار تجارب روائية عربية أخرى. تدخّلت حسيبة قائلة إنّه من الأفضل لي التركيز على خوض غمار تجربتي الروائية الأولى في شوارع وأزقة لندن، التي عشت فيها سنوات طويلة وخبرتها، وأنّه من المهم لكاتب، مثلي، بصدد الشروع في دخول مغامرة كتابة روايته الأولى أن يكون على الما م واسع بموضوع روايته. قالت، أيضاً، إنّ خوفي من التكرار لا داع له، لأنّ التجارب الانسانية متنوعة وخصبة، ولا يمكن لإنسان أن يعيش نفس تجربة انسان آخر مهما تقاربت الظروف وتشابهت، وأنّها واثقة من قدرتي على كتابة رواية مختلفة عما سبقها من روايات. وافقها فؤاد على ذلك، وأشار إلى الروايات التي يكتبها كتّاب من شبه القارة الهندية، باللغة الانكليزية، ونجاحهم المذهل في تقديم عوالمهم المدهشة إلى القارئ الغربي. وسألني لماذا لا أكتب روايتي باللغة الانكليزية؟ أجبته أنّني فكّرت في الأمر، خاصة بعد النجاح الذي حققه كاتب ليبي شاب في السنتين الاخيرتين، إلاّ أنّني عدلت عن الفكرة، بعد أن تأكد لي أنّ الكتابة باللغة الانكليزية، بالنسبة لي، مثل فريق كرة قدم يلعب بعيداً عن أرضه وجمهوره. ضحك فؤاد، وتساءل عن المانع في ذلك، خاصة إذا كان الفريق في قوة فريق كرة قدم مثل مانشستر يونايتد، الذي يفوز في معظم مبارياته خارج أرضه، وبعيداً عن دعم جمهوره! هزّت ندى رأسها موافقة فؤاد، وأشارت إلى رواية ميلان كونديرا الأخيرة (جهل) التي كتبها بلغة منفاه الفرنسي. تدخلت حسيبة موضحة أنّ كونديرا كتب كل رواياته السابقة لها بلغته الأم، رغم وجوده في فرنسا لسنوات طويلة. قالت إنّها قرأت الرواية باللغة الفرنسية، ووجدتها رائعة. التفتت، نحوي، وقالت لي إنّني يجب أن أقرأ الرواية، لأنّها تتعرض لنفس الموضوع الذي تحدثنا بشأنه في القطار. قلت لها إنّني قرأت الرواية في ترجمتها الانكليزية، وأعجبتني. أما بخصوص ما تحدثنا بشأنه، في القطار، فإن كونديرا، في الرواية موضوع الحديث، كان يحكي عن تجربة العودة، بعد سنوات طويلة، إلى الوطن عقب سقوط النظام الشيوعي. تدخل يسري مطالباً الجميع بتركي وروايتي لحالي، ومضيفاً أنّه، شخصياً، يفضل أن أكتبها بالعربية، حتى لا تستطيع زوجته الانكليزية قراءتها، وتجد، بعد هذه السنوات، طريقة للتخلص منه!

تكفل الجو المرح في تلطيف بعض توتري، الذي لازمني منذ أن وصلت المقهى مع حسيبة. انتهزت الفرصة، والتفتُ إلى حسيبة، وقلت لها إنّني آمل أن تسمح لي، كما سمحتُ لها، بأن أروي للاصدقاء الحاضرين الحوار الذي دار بيننا في القطار. ضحكت حسيبة، وقالت لي إنّها لا تمانع . سردت تفاصيل ما حدث. وحين انتهيت طلبتُ من الجميع الادلاء بدلاهم. ساد صمت قصير، ثم انفجر فؤاد ضاحكاً، وقال إنّه، دوماً، كان يعتقد أنّ حسيبة مجنونة، إلاّ أنّها، هذه المرّة، أثبتت خطأ اعتقاده. قال، أيضاً، إنه يتفق مع حسيبة، مئة بالمئة، وأنّ حنين أمثالنا يجب ألاّ يكون إلاّ لمستقبل مختلف وأكثر اشراقاً. وأضاف أنّه لا يعاني من داء الحنين لوطنه، والعودة للعيش فيه، لأن كل أساسات حياته قد تأسست بعيداً

عنه. قالت دعد إنها تختلف مع وجهة نظر حسيبة وفؤاد، لأنّ الحنين قد يكون للماضي كما يكون للمستقبل. تدخّلت في الحديث متسائلاً: «وماذا عن الوطن؟» قالت ندى إنّه من الممكن على المرء أن يحمل وطنه معه في قلبه أينما سار وحلَّ، وأنّ الوطن بتعريفه التقليدي الجغرافي ليس هو الوطن الذي تفكر فيه، وتحنُّ إليه. قالت، أيضاً، إنها تحنُّ إلى أهلها وأحبابها، لكنّها لا تحنُّ إلى السودان كبلد على ما هو عليه من فوضى وفساد، ولا تتمنى لأطفالها العيش فيه أو في أي بلد آخر مثله! تدخل يسري متسائلاً: ما ذنب الوطن في الفساد؟ الوطن هو الوطن، هل يفترض ألاّ يحب الانسان وطنه أو يحنُّ إليه إذا كان منخوراً بالفساد؟ وأضاف أنّ الفساد ليس حالة أبدية، إذا وجد اليوم فانه يحتمل ألاّ يوجد في الغد. وأنّ الأمر متعلق بالناس والظروف التي تعيش فيها، والتي تمر بها. وتساءل: هل امريكا أو بريطانيا تخلوان من الفساد؟ قالت حسيبة إنّها تتمنى على يسري أن يعود إلى مصر، ويجرّب العيش فيها بعد غياب هذه السنوات الطويلة. قالت إنها كلما حاولت إقناع نفسها بالعودة إلى الجزائر، والعيش فيها تبيّن لها استحالة ذلك، لأنّها لو حاولت ستصاب بالجنون من لا معقولية ما يحدث هناك. تساءل يسري: «هل يعني ذلك أنّك ارتضيت بريطانيا وطناً؟» ردت حسيبة، بسرعة، قائلة إنّها تحمل وطنها في قلبها كحلم، وأنّها لا تريد أن تفكر في الجزائر أكثر من كونها مسقط رأس لاغير، ولا تفكر في بريطانيا أكثر من كونها مكاناً مناسباً للعيش لها ولأفراد أسرتها. لكنّ وطنها الحقيقي لن يكون في الجزائر أو في بريطانيا! قالت دعد ضاحكة إنّها تتمنى أن تعرف إلى أي وطن تنتمي حسيبة. ردت حسيبة قائلة إنّ وطن حسيبة يسمى حسيبة. تدخل فؤاد قائلاً إنّ حسيبة قد عادت إلى سابق جنونها، وأنّه ليس على المجنون حرج، ثم نهض، من كرسيه، وقال إنّه يود الاستئذان للمغادرة، لأنّ زوجته في انتظاره. ثم التفت إليَّ وقال إنّه يعرف أنّني لم أكتب روايتي بعد، لكنه يأمل أن أُسِر إليه، على انفراد، بحل مؤقت ووقتي، يمكّنه من التخلّص من زوجته حتى يكون بامكانه، في المرّة القادمة، عدم مغادرة جلسة لطيفة كهذه! ضحك الجميع، وعلّق يسري قائلاً إنّ فؤاد جبان، وأنّه لو فكّر، مجرد التفكير في ذلك، لعلمت زوجته ولكانت «وقعته سودا!!».

في محطة قطارات لندن – واترلو وقفتُ، يداي في جيب بنطالي الجينز، إلى جانب حسيبة، محدّقين بعيوننا في الشاشات الالكترونية، التي تعرض مواقيت مغادرة القطارات إلى مختلف الجهات. كان آخر ضوء للنهار قد غادرنا على قطار سبقنا، والمحطة تغصّ بالبشر المتسارعين، المتعجلين على اللحاق بقطاراتهم، أو بما لا أعرف. بالقرب منّا، وقف شابٌ وفتاة، في عزلة كاملة، عما حولهما، مستغرقين في قبلة طويلة.

ارتجف قلبي.

نهارٌ متميز

تلك حسيبة!

حين رأيتها للمرّة الأولى، في «قاعة الكوفة»، في «وست بورن غروف»، منذ أكثر من خمس عشرة سنة، قلت في نفسي: «هذة المرأة ستكون زوجتي.»

المرّة الثانية، التي التقينا فيها، بعد أشهر قليلة على اللقاء الأول، كانت في «قاعة بروناي» بكلية الدراسات الشرقية والافريقية، بمنطقة «رسل سكوير»، خلال محاضرة عن الأمن الاوربي ودول شمال افريقيا. كانت صحبة رجل انكليزي، طويل القامة، ويقاربني في العمر. حين رأتني سلّمت عليَّ بحرارة، ثم قدّمتني للرجل المرافق لها، وتبيّن لي أنّه زوجها. قلتُ في نفسي: «هذة المرأة ستكون خليلتي.»

في المرّة الثالثة، التقينا بمكتبة «فويل» بمنطقة «تشارينج كروس.» وخلال الحديث القصير الذي جرى بيننا قلتُ في نفسي: «هذة المرأة ستكون شقيقتي التي لم تلدها أمي.»

المرّة الرابعة، التي التقتني فيها كانت في «المركز الايرلندي بهمرسميث». تلك المرّة، قلت في نفسي: «هذة الفرسُ الجزائرية الجموحة ستكون الصديقة التي ستعوضني عن كل من فقدتُ من أصدقاء.»

التقينا بعد تلك المرّة، صدفةً، في محطة قطارات ويمبلدون عدة مرّات، ومن خلالها وصلتُ إلى قناعة تامة بأن حسيبة هي أمي في منفاي.

فيما بعد، حين تعددت، وانتظمت لقاءاتنا، وصرنا نتزاور عائلياً، أدركت أنّ حسيبة قادرة على أن تكون، في آن واحد، وبجدارة، زوجتي، وحبيبتي، وصديقتي، وخليلتي، وشقيقتي، وأمي.

ليست طويلة. جسدها ممشوق. ساقاها مستديرتان، ومثيرتان. شعر رأسها قصير، بلون فاحم السواد. جمالها ليس صارخاً، أو باعثاً على الدهشة، بل كمخدر يسري على غير استعجال، عبر الشرايين، حتى يصل إلى منابع الروح القصيّة، ويستحوذ عليها بهدوء. حين تتكلم تتعلق عيناي، عفوياً، بالتلونات والاستدارات التي يتخذها فمها الصغير، وهو يجاري سرعتها في الكلام.

حين تغضب، تتحول عيناها السوداوان إلى كرتين من نار ولهب. ويهدر فمها الصغير والدائري، كخاتم، بسيل من كلام ممزوج بالعربية، والفرنسية، والانكليزية.

حين تكون في حالة انشراح، تتحول إلى كائن أنثوي مبهج وجميل، يكاد يضيء من حيويته، بشكل يجعلني أؤمن أنها، بحق، من أولاد عبد النور، كما تؤكد دائماً.

في العامين الأولين لتعارفنا، حكتْ لي كثيراً عن نشأتها في العَلْمَة، موطن أولاد عبد النور، المعروف عنهم أكلهم «للرفيس بالبر» أي الإبر، في الوقت الذي يأكل فيه غيرهم «الرفيس» بالأيدي، كدلالة على تقدمهم حضارياً على غيرهم من القبائل والعشائر والبطون، بولاية سطيف، في مناطق الهضاب الشرقية، بالجزائر.

العلمة تقع شرق سطيف، وتبعد عنها مسافة 25 كيلومتراً. وحسيبة ولدتْ بالعلمة، وعلى علاقة غير ودية معها، كما أعترفت لي بنفسها عدة مرّات. عائلتها تتكون من والديها، وثلاث أخوات، وثلاثة أخوة. مات أبوها مقران وهي صغيرة، وعاشت مع أمها وأخوتها حياة صعبة. وأفلحت بذكائها الوهّاج في اجتياز المرحلة الابتدائية بتقدير ممتاز، أهّلها للحصول على منحة للدراسة الاعدادية والثانوية بمدرسة البيرتنيه، التي تغير اسمها، بعد الاستقلال، وصارت تعرف بمدرسة محمد قيرواني، أحد شهداء الثورة الجزائرية.

الانتساب للمدرسة كان مقتصراً على النجبين والنجيبات، من الطلبة والطالبات، من جميع مناطق ولاية سطيف. كانت مدرسة البنات تقع على مقربة من مدرسة البنين. نظام المدرسة الداخلي من وضع الادارة الفرنسية، وورثته دولة الاستقلال، ولا يختلف، إلاّ في بعض التفاصيل، عن نظام أي معسكر للجيش الفرنسي، من حيث الصرامة والشدة والانضباط. تقول حسيبة إنّها أحبّت تلك الفترة من عمرها، لأنّها ساهمت في تصليب عودها، وشحذ عزيمتها، وتعليمها الأعتماد على نفسها، والأهم من ذلك ادراكها، في تلك المرحلة المبكرة من العمر، حقيقة أنّ الانسان الذي لا حلم له لا حياة له. تقول حسيبة إنّ الحلم بحياة أفضل، وأرقى، وأسعد، وأبهج، كان دليلها الهادي، الذي قادها بسلام وأمل، عبر تلك المرحلة وقسوتها، إلى ما هي عليه الآن. نالت البكالوريا بتقدير متفوق. وألتحقت بجامعة قسنطينة لدراسة الحقوق. ونجحت بتفوق مكّنها من الحصول على منحة للدراسة بجامعة كمبريدج ببريطانيا. كانت حسيبة أول طالبة جزائرية ترسل لاستكمال دراستها العليا بجامعة بريطانية. وفي كمبريدج، أدركت حسيبة، بما لا يدع مجالاً لشك، أنّ حياة العلمة، وسطيف، وقسنطينة، ستبقى في ذاكرتها مثل محطات صغيرة، توقف بها، ذات يوم، مسافر في رحلة يعرف، مسبقاً، أن لا عودة منها.

حين أنتقلت وزوجها ألستر للسكنى بويمبلدون، عزمتني على عشاء في بيتها الجديد مع مجموعة من أصدقائهما من عرب وانكليز. أعدّت مع زوجها للضيوف أكلات شهية. وخلال وجودي هناك، أخذتني حسيبة لاطلاعي على مكتبتهما في البيت. تبيّن لي أنّ حسيبة وزوجها قارئان نهمان. على أحد أرفف المكتبة، رأيت صورة لامرأة متقدمة في السن، ترتدي الزيّ الجزائري. قالت لي حسيبة هذه الصورة ألتقطت لأمها قبل وفاتها بحوالي سنتين. قلتُ لها إنّها تشبه أمها كثيراً. ابتسمت حسيبة، وقالت، رداً على ملاحظتي، إنّها لم ترث عن أمها ملامحها فقط، بل الأهمّ من ذلك أنها ورثتت عنها،

أيضاً، قوة العزيمة، والصبر على مقارعة نوائب الدهر. حكت لي بعضاً من تفاصيل حياتهم في العلمة، بعد وفاة أبيها سي مقران. وأعترفت لي أنّ عزيمة أمها، وقوة مراسها، كانتا وراء استمرارها في الدراسة، ونجاحها، وتفوقها.

أذكر أنّني في بداية تعارفنا سألتها عن زوجها ألستر، ولماذا اختارت الأقتران به؟ ضحكت حسيبة وقالت بالانكليزية: «هل تصدق أنّني حين التقيت به، أول مرّة، في السنة الأولى من دراستي بكمبريدج، ذُهلتُ حين عرفتُ أنّه، رغم عمره الذي تجاوز الخامسة والعشرين، كان لايزال جرواً مغمض العينين.» سألتها، بالانكليزية، ان كان ذلك يعني أنّها غررت بقاصر؟ ضحكت حسيبة، وردت قائلة إن الأمر ليس كما بدا لي، لأنّها بعد أن تزوجته اكتشفت أنّ من ظنته جرواً مغمض العينين قد صار، خلال فترة قصيرة، كلباً لا مثيل له في الشراسة والنباح! قلت لها متوعّداً أنني سأبلّغ ألستر بما سمعت. قالت حسيبة إنّ الأمر لا يعنيها، ومستعدة أن تعيد ما قالته في حضوره. وأضافت بالعربية ضاحكة: «كلبٌ كثير النباح، لكني تعودت على نباحه، وعرفتُ، بمرور الوقت، أنه لا يعضّ ولا يضرّ».

قلت لها، بالانكليزية، مداعباً، إنّني كنتُ أظن أنّ الكلب لا يقترن إلاّ بكلبة. نظرت حسيبة إليَّ نظرة معاتبة، وسألتني بالانكليزية، وبجديتها المعهودة: «تقصد أنّي كلبة؟»

قلت بالعربية مستدركاً : «كل كلاب الأرض، التي تسير على قدمين، وأنا منهم، أو التي تسير على أربع، لا تستحق لحظة واحدة من غضبك.»

ابتسمت حسيبة وردت، بالعربية، قائلة : «أنت كلب زي ألستر، لكنه يختلف عنك لأنّه ليس لئيماً.»

أذكر، مرّةً، بعد تعارفنا وتنامي صداقتنا، أنّني تلقيت مكالمة هاتفية من زوجها ألستر، يطلب فيها لقائي. حددنا موعداً في مساء نفس اليوم، وألتقينا في مقهى صغير، بويملبدون. حين وصلت المقهى وجدته قد سبقني، وجلس على كرسي حول منضدة وحيداً، يتصفح مجلة. حين وصلته وقف، وسلّم عليَّ محيياً، وسحب كرسياً، وطلب مني الجلوس. لم يضع وقتاً، وبسرعة خاطفة دخل في الموضوع، وبلا مقدمات. قال لي إنّه طلب لقائي، لأنّه في حاجة لمساعدتي. وأضاف أنّ الأيام الثلاثة الأخيرة كانت أسوأ أيام حياته، لأنّ حسيبة غاضبة منه، وحرّمت عليه دخول البيت، وأنّه اضطر للبقاء في فندق طوال هذه الأيام، ويرجوني أن أتوسط له عندها كي تعفو عنه، وتسمح له بالعودة إلى البيت. قال لي إنّه يعرف عمق صداقتنا وتقديرها لي، وأنّه التجأ إليَّ لأنه لم يعد يدري ماذا يفعل؟ أعترف أنّني صدمت في البداية. وشعرتُ بنوع من الشفقة نحوه. التزمت الصمت، قليلاً، ثم سألته ان كان بامكانه أن يوضح لي الأمر قليلاً، حتى يمكنني أن أقرر ما إذا كنت سأتدخل في الموضوع وأساعده أم لا.

قال ألستر أنّ المسألة لا تستحق كل هذا الغضب من حسيبة. لكنها حسيبة كما تعرفها، حامية الرأس، وعنيدة، والأسوأ أنّه من الصعب، أحياناً، التنبؤ بردود أفعالها. التزمت الصمت وواصلت الإنصات. قال: «في الأسبوع الماضي، وبينما كنتُ، في البيت، منهمكاً في اعداد تقارير تخصّ عملي، طلبتْ مني حسيبة مساعدتها في القيام بأعمال التنظيفات

في البيت. لكني تجاهلتها، فكررت الطلب. قلت لها إنّه يتوجب عليَّ إنهاء قراءة هذه التقارير، واعداد تقرير بشأنها لمديري في الشركة. لم ترد عليَّ. في اليوم التالي، ذهبت إلى عملي، ككل يوم، وبعد انتهاء الدوام رجعت إلى البيت. وحين فتحت الباب، ودخلتُ، وجدتها أمامي واقفة، وعيناها تقدحان شرراً. بدون مقدمات، طلبتْ مني أن أعود من حيث أتيت. وفي حالة رفضي الامتثال لذلك أقسمت انها ستكسر رأسي قطعاً. رجعتُ من حيث أتيت، كما طلبت مني. وبحثت عن فندق أقيم فيه. في اليوم التالي، حين عدتُ للبيت تكرر نفس السيناريو. ولم أجرؤ على تكرار العودة إلى بيتي في اليوم الذي يليه. ومازالت ترفض الرد على مكالماتي الهاتفية.»

أخرجت هاتفي النقّال، ونقرت رقم حسيبة، فجاءني صوتها رائقاً، ومبتهجاً. بعد السلامات، قلت لها إنّني قادم للبيت صحبة ألستر. ساد صمت للحظات، ثم سمعتها تقول لي: «أرْوَاح صُحْبه. الدار دارك».

حين وصلنا البيت، ودخلنا، استقبلتني بالأحضان، وتجاهلت ألستر. جلسنا في حجرة الجلوس، وأعدّت هي لنا قهوة. تجاذبنا حديثا قصيراً، ثم ودّعتهما، وغادرت عائداً إلى بيتي.

ذهبتُ، مرّة، لحضور محاضرة يلقيها ممثل جبهة الانقاذ الاسلامية الجزائرية (فيس) بكلية الدراسات الاقتصادية، بجامعة لندن، في منطقة «هولبورن». حين وصلت قاعة المحاضرة وجدتُ خارجها حسيبة وألستر واقفين يحتسيان قهوة، ويتجاذبان حديثاً مع امرأة، ظننت أنّها انكليزية. سلّمت عليهما، وعرّفتني حسيبة بالسيدة الأخرى، التي تبين أنّها ايرلندية، من غرب بلفاست واسمها كاثرين. حين حان وقت المحاضرة، دخلنا معا إلى الصالة، وجلستُ إلى جانب كاثرين، في حين أنّ حسيبة وزوجها جلسا متجاورين على مقعدين في الصف الأمامي لنا. كان المحاضر شاباً في بداية الثلاثينيات من عمره. طويل القامة، بلحية حمراء اللون، وشعر رأس قصير وأحمر. يرتدي معطفا صوفياً أسود، ويتحدث الانكليزية بطلاقة. أخرج من حقيبة جلدية سوداء، كانت معه، نسخة من صحيفة الغارديان . وضعها على المنضدة أمامه، وأسترسل في حديثٍ عن الجرائم التي ترتكبها عناصر من وحدات خاصة في الجيش الجزائري ضد المدنيين، بغرض تشويه سمعة عناصر الجبهة الاسلامية. بين الفينة والأخرى، كان يرفع صحيفة الغارديان بيده، عالياً، كدليل على صحة ما يقوله. كنتُ أتابع المحاضر باهتمام، لكني كنت ألحظ، وأراقب، أيضاً، عدم رضى حسيبة، الجالسة أمامي، لما يقوله الرجل، من خلال لغة جسدها، واهتزازات رأسها. انعطف المحاضر للحديث عن آخر جريمة ارتكبت ضد مدنيين، في قرية جزائرية، على مقربة من مناطق الجبل. رفع الرجل الصحيفة عالياً، بيده اليسرى، طالباً من الحاضرين الاطلاع على التقرير الذي أرسل به مراسلها. إلاّ أنّ حسيبة قاطعته محتجة، وقالت، بصوت يفحّ منه غضب لا يخفى، إنّ صحيفة الغارديان ليست نسخة منزّلة من الانجيل، أو القرآن، ثم قالت، بصوت مثقل بسخرية مُرّة، إنها قرأت، مَرّة، تقريراً يقول إنّ أعضاء الحركة الاسلامية المسلحة في الجزائر يوزعون الحلوى والمرطبات على الأطفال والمدنيين! وأضافت متسائلة: «لماذا لا تحترم عقول الحاضرين، وتتوقف عن اهانتهم بترهاتك السخيفة؟ ألستم مجرمين مثلكم مثل الجيش الجزائري وأسوأ؟» ونهضت من مقعدها واقفة، وغادرت تبعها ألستر. ترددت قليلاً، ثم قررت المغادرة، أيضاً، فنهضتُ، وتبعتني كاثرين.

تلك حسيبة!

نهارٌ أبيضْ جداً

أبيضُ لونُ السماء،

أبيضُ لونُ الهواء،

أبيضُ لونُ الشجر،

أبيضُ لونُ العشب،

أبيضُ لونُ الشارع والرصيف،

أبيضُ لونُ المباني، والأسقف، والسيارات،

فكيف انبثقتْ الدهشةُ، في قلبي، مضيئةً بألوان قوس قُزح؟

استيقظتُ، من نومي، صباحاً، في نفس الموعد، كعادتي، كل يوم.

لستُ في حاجة إلى اقتناء منبّه. منبّهي البيولوجي يقوم بالمهمة على أحسن وجه. حتى في أيام عطلات الأسبوع، أو في أيام العطلات، في كل الفصول، أحسّ أنّ شيئاً ما يصرخ في داخل أمعائي ملحّاً عليَّ، مطالباً إياي بالاستيقاظ، ومغادرة دفء فراشي، في نفس الموعد، تقريباً، والتوجه نحو الحمّام، والجلوس على برودة خشب مقعد المرحاض، بعينين شبه مغمضتين.

العادة أنّني، بعد انتهائي من افراغ أمعائي، أتجه، بشكل آلي، إلى المطبخ، وأعدُّ كوباً من الشاي الخفيف. عقبها، أتجه إلى حجرة الجلوس، وأجلس على الكنبة الوحيدة المواجهة للنافذة، وأرتشف رشفة من كوب الشاي الساخن، ثم أشعل، وأدخّن سيجارة. بمجرد انتهائي من تدخين سيجارتي، أنهض من مكاني على الكنبة، وأتجه نحو النافذة المقابلة، وأزيح الستائر لأرى وجه النهار ويراني.

ذلك الصباح، حين أزحتُ، بكسلٍ، ككل صباح، ستائرَ النافذة، قفزتْ، من فمي، صرخةٌ: «واو!»

لم أكن أحلم، ولم أكن مخموراً!

تخيّل أنك، في الليلة السابقة، كنتَ، مثلي، في عين المكان، جالساً، على كنبة قديمة، تشاهد برنامجاً تلفزياً مُملاً، ثم، فجأة، تحسّ بتلاشي قدرتك على تحمّل الضجر. تنهضُ من مكانك، وبآلية، تمتدُ يدُك إلى جهاز التحكم عن بعد، الملقي كجثة على المنضدة الخشبية الصغيرة، القابعة، منذ قرون، أمامك، وتضغط على زر القفل، وتغادر الحجرة، بعد إطفاء النور، وتتوجه إلى الحمّام، كي تفرغ مثانتك، وبملل تدعك ما تركت رائحة التبغ الكريهة والنهار كله من مرارة في فمك بفرشاة، ثم تأوي إلى فراشك . تحاول أن تفكر في شيء مفرح تعيد اجتراره، ولا تجد ما تجترّ، فتنام، من شدة الضجر والأسى، كقطعة خشب. بامكانك تخيّل ذلك، حتى وان لم تجرّبه، وهذا مستحيل!

تخيّل أنّك، تلك الليلة، حين آويتَ إلى فراشك ونمتَ، حلمتَ، على غير عادتك، حلماً غريباً، وحدث أنّك، على غير عادتك، تذكّرت تفاصيل ذلك الحلم!

يحدث، أحياناً قليلة، ومعدودة، أن تنامَ نوماً عميقاً، وتحلمَ حلماً غريباً، يشبهك، ثم تتذكره!

في حلمك الغريب، ذاك، وجدتْ نفسك في مكان أشد غرابة منك. تنبعث منه رائحة عفونة، وعرق، ودم، وحموضة، وقهر، وقمع، وحرمان. مكانٌ، كآبةُ جدرانه، تصيب قلبك كطعنة. وقذارته تعشش في عظامك. أبوابُ حجراته الضيقة والوسخة مصنوعة من حديد بليد. وحولك، يحيطُ بك رجالٌ غلاظٌ، يرتدون بدلات رجال الجيش، بوجوه مكفهرة، يحملون في أياديهم اليسرى مفاتيح أقفال أبواب حديدية، وفي أياديهم اليمنى هراوات. خاصراتهم مزنّرة بأحزمة جلدية سميكة وقبيحة، تتدلى منها مسدسات. بقيتَ في كابوس ذلك المكان، وتحت رحمة أولئك الرجال القساة سنوات طويلة، ثم فجأة، غادرته إلى حيث كنتَ قبله!

تخيّلْ أنكَ، في حلمك الغريب، بعد تلك العودة، ظللتَ، كل يوم، ترى صورة ذلك المكان البغيض تحدّق فيك، وتلاحقك أينما ولّيت وجهك وحيثما حللت!

وعشتَ بقية أيامك صحبة كابوس حقيقي!

ظللتَ تسير في الشوارع، وانت متأكدٌ، مائة في المائة، أنّكَ طبيعي جداً، لا تختلف عن أي فرد من البشر الأسوياء، الذين كانوا يصادفونك في طريقك، حتى وإن لم يسبق لهم رؤية ما رأيته وعشته، أنتَ، في حلمك/كابوسك الغريب!

ثم تخيّلْ أنّك «عييتْ، وملّيتْ» من هذه المطاردة، الدائمة، والمرهقة، فقررت الهروب منها. فقادكَ حتفُكَ، وقدرُك إلى بلاد بعيدة، وباردة، يدثّر سماءها ضبابٌ، وتقع وراء بحار أليمة، وموحشة، ومخيفة.

ذات يوم، بعد سنوات أخرى طويلة، ومرهقة، «ضُربك الحيطْ، وشاهد العقل»، فاكتشفتَ أنّ سياسة الهروب إلى الامام ليست بالسياسة المثلى لمواجهة ما تواجهه من مأزق حياتي.

الغريب أنّك ترفض أن تصدّق ذلك.

الغريب أكثر أنّك تصدّق كذبك على روحك!

الغريب جداً، أن تستيقظ صباحاً، في مكان يقع في جنوب غربي لندن، فتكتشف أنّ الثلج سبقك في الاستيقاظ، وأستحوذ بياضه الآسر على قلب الأشياء والنهار، وجعل قلبك، منّدهشاً، يصرخ، في صدرك، من فرح وألم: «واو!»، فلا يسمعكَ سواكَ، ولا يشارك دهشة قلبك أنيس!

أنا، هذا النهار الغريب جداً، مفتونٌ بالبياض، الذي أراه أمامي، من خلال زجاج النافذة، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، ولا سُكرَ!

أبيضُ لونُ اللغة التي انبثقت في حناياي كبياض لون أجنحة أحلام طفولتي.

أبيضُ لونُ الحنين الذي يهسّ في قلبي، ولونُ الوطنِ الذي أخبئه في شغاف روحي.

وأبيضُ ما لا أرى ويراني!

دهشةُ قلبي، فقط، حين انبثقتْ، اكتستْ بفتنةِ الالوانِ في قوس قُزح!

انقشع حزني.

نهارٌ يتسكّع وئيداً

قضيتُ اليومَ الأول، من العاصفة الثلجية ممدداً، على قفاي، فوق الكنبة الكبيرة، في حجرة الجلوس، صحبة صديق قديم، اسمه «دون كيشوت دي لامنشا». كان رفيقاً قديماً لا أمَلُّ من رفقته خاصة في ظروف كهذه. وككل مرّة، لم يخب رجائي في صديقي لامنشا. قضينا معاً وقتاً طويلاً ممتعاً، وأضحكني كثيراً، ودفؤه أذاب جليد مللي. في المساء، جلست أمام التلفزيون، على نفس الكنبة، أتابع نشرات الأخبار، وأشاهد بعينين غير مصدقتين، من خلال الصور الأخبارية، كيف التهم الثلج بوحشية حيوية لندن العجيبة، وأحالها إلى مدينة مهجورة «ينعق فيها البُوم!»

في اليوم الثاني، تأكّد لي استحالة الخروج من الشقّة، والذهاب إلى دوام عملي، لعدم وجود مواصلات عامة. تمددت على نفس الكنبة، وواصلت رحلتي، التي بدأتها في اليوم السابق، مع صديقي لامنشا، وهو يحاول، جاهداً ومتعثراً، بعث الحياة في جثة هامدة لزمن قضى وأنتهى غير مأسوف عليه.

قرابة الساعة الرابعة مساء رنّ جرس هاتفي النقّال الملقى على المنضدة الخشبية القريبة مني. التقطه بيدي اليسرى متكاسلاً. سمعت صوت مديري، في الشركة التي أعمل بها، يؤكّد على حضوري للعمل صباح الغد.

في اليوم الثالث، باشرتْ، بحذر، وسائل المواصلات العامة حركتها، وعادت الحياة بطيئاً إلى روح لندن. في الطريق إلى محطة القطارات، اضطررت إلى السير ببطء خشية الانزلاق على الأرض، نتيجة لتحوّل الثلج على الأرصفة إلى جليد، يجعل المرء يحسّ وكأنّه يسير على لوح من زجاج. وصلتُ المحطة، واستقلت القطار الذاهب إلى وجهتي. حين وصلتُ مقر عملي بالشركة، عرفتُ من موظفي الاستقبال أنّ معظم الموظفين تغيبوا عن العمل خلال اليومين السابقين. قرابة منتصف النهار، إتصل بي صديقي سعيد هاتفياً ليبلغني أنّه قادم من مانشستر إلى لندن بالقطار مساء ذلك اليوم، ويود لقائي لمتابعة موضوع زوجة قريبه التي فرّت بولديها. إتفقنا على اللقاء بمقهى «الدار» بشارع «ادجوارد روود». فكّرت في الأمر مليّاً، ثم رفعتُ سماعة الهاتف، ونقرتُ رقم صديقي مجيد. بعد السلامات، حكيتُ له على موضوع لقائي بسعيد، وطلبت حضوره للقاء، ومشاركتي في حمل ثقل المصيبة التي نزلت على رأسي من السماء.

عقب انتهاء دوام يوم عمل ممل، غادرت مقر الشركة، في «اولد برومبتون روود»، قرابة الساعة الرابعة والنصف، وتوجهت مشياً على القدمين نحو «ادجوارد روود»، مخترقاً دروب حديقة «هايد بارك»، الغارقة في وحشة الثلج والبرد. في الطريق، ظللت أفكّر بموضوع الرواية التي أتهيأ لكتابتها. اكتشفت أنّه من الصعوبة بمكان على كاتب، مثلي، غير متفرغ، أن يجد الوقت الكافي لذلك وسط هذه الغابة المشتجرة من المشاغل الحياتية التي لا تنتهي أبداً. رنّ جرس هاتفي المحمول. من

الطرف الآخر منه جاءني صوت صديقي، الطبيب والكاتب مراد يسأل عن أحوالي خلال العاصفة الثلجية، وعن آخر أخباري. قلت له إنّني مشغول بالاعداد للبدء في تجربة كتابة رواية، إلاّ أنّ ضيق الوقت وكثرة المشاغل تقف حائلاً بيننا. ضحك مراد، ونصحني بألاّ أهتم بالوقت، وأن أهتم بالبدء في الكتابة. وأضاف: يكفي كتابة بضعة جُمَلٍ بشكل يومي. قال لي إنّه حضر، مرّةً، أمسية للكاتبة البريطانية «دوريس لسنج»، أقامتها في مكتبة بويست هامبستيد، بمناسبة صدور الجزء الأول من سيرتها الذاتية: «تحت جلدي»، وخلال الأمسية، أعترفت الكاتبة أنّها، في بعض الأحيان، لا تتمكن من كتابة سوى جملة واحدة فقط كل اليوم. قال: «تصور أنّ كاتبة محترفة ومتفرغة ومشهورة تكتب جملة واحدة في اليوم كله، ومع ذلك يصدر لها كتاب كل سنة! لذلك من المهم أن تتوقف عن الشكوى من ضيق الوقت، وكثرة المشاغل، وتبدأ الكتابة». شكرتُ مراد على تشجيعه، وتمنّيت له مساءً طيباً، واقفلت هاتفي، وأعدته إلى مكانه في الجيب الداخلي لمعطفي الثقيل.

حين وصلت إلى شارع «ادجوارد روود»، وجدته على عهده من الكآبة. شارع العرب في لندن، مثل بلاد العرب، لا يتغير إلاّ إلى الأسوأ، مهما تباعد الوقت، وتغيرت أحوال الدنيا. المقاهي التي يضيق الخاطر من رؤيتها. والزبائن الجالسون على كراس، حول مناضد مصفوفة على الأرصفة، يدخّنون الشيشة، ويتحدثون بصوت عال، ويبحلقون، في المارين، بفضول. اتجهت، مباشرة، إلى مقهى «الدار»، حيث وجدت سعيد جالساً على كرسي حول منضدة، صحبة فتاة جميلة وصغيرة في السن، شعر رأسها طويل، وفاحم السواد، وعيناها جميلتان وذكيتان. ترتدي قميصاً نسائياً، أبيض اللون، وفوقه كنزة صوفية سوداء، ومفتوحة الأزرار، وجونلة صوفية رمادية وطويلة. نزعت معطفي الغامق والثقيل، ووضعته على كرسي بجانبي. سلّمت على سعيد بالأحضان، ثم قدّمني لرفيقته فاطمة، والتي عرفت، فيما بعد، أنها برتغالية، تعيش في مانشستر منذ ثلاث سنوات للدراسة. أبلغت سعيد أنّ صديقاً لي سوف يلتحق بنا قريباً، بغرض المساعدة في ايجاد حل للمشكلة. لم يكن سعيدُ سعيداً. كانت عيناه السوداوان الضيقتان مغيّمتين. ووجهه، غير الحليق، مدعاة لانقباضي. بدأنا حديثاً عادياً عن الأحوال، ومانشستر، والدراسة. قال لي سعيد إنّه ضاق ذرعاً بمانشستر، وبكثرة الليبيين والعرب فيها، وإنّه يود الاقامة في لندن نهائياً، وبدأ جدّياً، منذ فترة، البحث عن عمل مع إحدى الشركات، أو المصارف في حي المال. عرفتُ منه أنّ فاطمة ليست مجرد صديقة عادية، بل حبيبته وتقيم معه في شقّته، منذ أكثر من شهرين، وأنّها تحضّر رسالة ماجستير في الشعر البرتغالي الحديث. تبادلتُ مع فاطمة الحديث حول دراستها، واكتشفتُ أنّها شاعرة، وصدر لها ديوان شعر باللغة البرتغالية، منذ أكثر من سنتين. قالت إنّ سعيدا أبلغها أنّني أكتب، وأنشر قصصاً، في صحيفة عربية بلندن، وأنّها تتمنى الحديث معي حولها. شكرتها على أهتمامها، وقلت إنّني، أيضاً، أود معرفة المزيد عن تجربتها الشعرية خصوصاً، والحركة الشعرية في البرتغال عموماً. تدخل سعيد مذكّراً أنّ وجودنا في المقهى ليس للنقاش الأدبي، بل لمحاولة ايجاد حل لمشكلة عائلية عويصة وحزينة. قلت لسعيد إنّني على علم بذلك، إلاّ أنّني، قبل البدء في وجع الرأس، أريد أن أسال فاطمة سؤالاً آخر، ثم التفتُ إلى فاطمة، وقلت لها لاشك أنّك تعرفين أنّ الأسم فاطمة عربي، فهل يعني ذلك أنّكِ من أصول عربية؟ ضحكت فاطمة بأنوثة، وقالت إنّ الاسم، فاطمة، اسم معروف، وكثير الانتشار، في شمال البرتغال، أي في لشبونة وحواليها تبرّكاً باسم قديسة تعرف بهذا الاسم، والتي بعد موتها، بُنيت لها كنيسة كبيرة، سُميت باسمها، في قرية تعرف باسم قرية

فاطمة، ويحجّ الناس إلى قبرها تبرّكاً كل سنة في اليوم الخامس عشر من شهر مايو، وأنّ هذه القرية الصغيرة كبرت في الحجم، الآن، وصارت بلدة، إلاّ أنّها مازالت تسمى قرية فاطمة، وتقع شمال لشبونة، وتبعد عنها حوالي مسافة ساعة ونصف سفراً بالسيارة. كما تمّ بناء كنيسة أخرى كبيرة، مجاورة للقديمة، وسميت بنفس الاسم.

نظر إليَّ سعيد نظرة معاتبة، وقال إنّ هذا يكفي. وأستأنف حديثه قائلاً إنّه تحصّل على العنوان الجديد للبيت، الذي أقامت فيه السيدة الهاربة وولديها، بعد وصولها لبريطانيا، من شقيق له صديق لشقيقها. أضاف قائلاً إنه سيحاول لقاءها صباح الغد، في محاولة لاقناعها بالعودة إلى ليبيا. قلت لسعيد، باستياء واضح، إنّني لا أرى أي جدوى من عزمه على الالتقاء بها، لأنّه، من الواضح لي، أنّ المرأة مصممة على البقاء، ومواصلة العيش مع ولديها في بريطانيا. وأنّ الحلّ الأمثلَ هو الاتصال بمحام جيد، والأستماع إلى مشورته، وما يعرضه من حلول. كانت فاطمة تستمع، إلى حديثنا العربي، باهتمام. لاحظتُ أن عينيها جميلتان بشكل لافت للنظر، وتفيضان أنوثة، وحيوية، وغواية. التفتت نحوها فجأة وسألتها: «من اين لكِ هاتان العينان الجميلتان؟» ضحكتُ فاطمة لسؤالي، غير المتوقع، في حين انقبض وجه سعيد استياءً من تصرفي، وتساءل معاتباً: «أحنا وين وأنت وين يا أستاذ؟» لم أرد عليه. واصلت النظر في وجه فاطمة وعينيها الفاتنتين، ثم قلت لها: «لم اسمع رداً لسؤالي!» فاض وجهها بابتسامة عذبة، وقالت إنّها تعتقد أنّها ورثتهما عن جدتها لابيها. قال سـعيد لفاطمة مبتسماً : «حدّست، منذ البداية، بحدوث ما يحدث الآن.» ضحكت فاطمة، وردت قائلة إنّها لا تمانع، لأنّها كثيراً ما تعرضت إلى سؤال كهذا. وأنّ آخر مرة حدثت في الاسبوع الماضي، في محطة قطارات بيكاديللي في مانشستر، حين أوقفتها امرأة، وسألتها نفس السؤال. رنّ جرس هاتفي المحمول، وكان صديقي مجيد على الطرف الأخر منه. أبلغني أنه سيتأخر قليلاً، بسبب العرقلة الكبيرة في حركة المرور. طلبت من نادل شاب، فارع القامة، شامي الملامح، أن يأتيني بفنجان قهوة بالحليب، وقطعة مرطبات. جاءني النادل بطلبي، فحملت فنجان قهوتي الحليبية بيدي اليمنى، ونهضت من مقعدي قائلاً إنني سأخرج لدقائق من أجل التدخين. قالت فاطمة إنّها سترافقني. خرجنا معاً، وبقي سعيد جالساً، في مكانه، محدّقاً، بعينيه السوداوين الضيقتين المغيمتين، في شاشة تلفزية، معلقة على الجدار أمامه، تنقل وقائع مباراة كرة قدم في بلد عربي.

حين التقيت بسعيد، لأول مرّة، كانت مدينة برايتون شجرة وارفة الظلال، تمسّ أغصانها اليانعة في قلبي بسرور وحبور، وكنتُ، كل مساء، أتسكع مع فتنة موج بحرها، يداً في يد، نجوب الأزقة، والشوارع، والبارات، وحين نتعبُ، نعود، معاً، إلى شقّتي الصغيرة، في شارع بالميرا أفنيو، نجلس معاً على كنبة صغيرة، نستمع إلى صوت فيروز يبحث، في مسام الليل، عن كنّ يجيره من برد ليالي الشمال الحزينة. وحين ينالُ منّا التعبُ، أحملها بين أحضاني، ونأوي معاً إلى سفينة فراشنا، ملتحفين دفء أحلامنا. وكان سعيد، حين التقيته، شاباً غِرّاً، مازال مدثراً بغبار طرابلس، وأثار صهد شمسها اللافحة بادية، بوضوح، على ملامح وجهه الشاب، وفي عينيه الضيقتين تبدو قطعانُ حيرة ترعى في براري خوف مجهول. في إطار دائرة صغيرة ومعروفة من الأصدقاء الليبيين، في برايتون، كان لقاؤنا عادياً، ومتوقعاً. أول مرّة رأيته كان في مقهى مخازن مسز سلفريدج المشهورة، في السوق المجمّع. كان المقهى نقطة التقاء الشباب الليبيين، وكنتُ أكبرهم سنّاً. ذات

ظهيرة، بينما كنت جالساً مع أصدقاء آخرين، في المقهى، رأيته داخلاً صحبة صديق آخر. تعرّفتُ به، وعلمتُ أنّه جاء إلى برايتون لدراسة اللغة الانكليزية، تمهيداً لدراسته العليا في مجال المحاسبة. مع مرور الوقت، نشأت بيننا علاقة وطيدة، وطيبة. حين أنهى دراسته، في اللغة الانكليزية، ترك هو برايتون إلى مانشستر، في حين أنّني حملت بهجة أيام برايتون في قلبي، وتوجهتُ إلى مدينة أخرى غرب لندن يسميها أهلها ريدينغ، وتقع على بُعد مَرمى حَجر من تخوم النسيان.

قالت فاطمة:

– أعتقد أن الحياة في لندن ليست سهلة.

سحبت نفساً عميقاً من سيجارتي، وأجبتها، على طريقة الأسبان، بسؤال:

– وهل تعتقدين أن الحياة سهلة في أي مكان آخر؟

نظرت إليّ بسواد عينيها الفاتنتين، وقالت إنّها لا تعرف إجابة عن سؤالي، لأنّها لم تغادر مدينتها لشبونة طوال سنوات حياتها، إلاّ إلى لندن، حيث قضت فيها أسبوعاً يتيماً، وصفته بأنه غريب، ثم تركتها، غير آسفة، إلى مانشستر للدراسة.

سألتها عن حياتها في مانشستر، وهل هي سعيدة بالاقامة فيها. قالت فاطمة إنّها لا تشعر بالسعادة إلاّ حينما تكون في لشبونة، وهي تعرف أنّ وجودها في مانشستر سينتهي بمجرد الانتهاء من دراستها، وحصولها على الشهادة. سألتها: وسعيد؟

قالت: «ماذا عن سعيد؟ إن كنت تقصد العلاقة، التي بيننا، فإنها ما زالت في بداية الطريق، وهناك الكثير من العقبات التي يتوجب علينا معا تخطّيها. وإن كنت تقصد رأيي في سعيد، كشخص، فأنا أعتقد أنّه انسان طيب، وذكي، وطموح وعاشق رومانسي.»

سألتها مرة أخرى: «والشعر؟»

ابتسمت فاطمة، وقالت : «إنّه كل شيء في حياتي، ولا أظنني بقادرة على العيش دونه.» قلت لها: «يالبخت سعيد الحلو بامرأة عذبة وشاعرة مثلك».

انتهينا من تدخين سيجارتينا، وهممنا بالعودة إلى حيث كنا نجلس مع سعيد، فإذا بي أرى مجيداً قادماً نحو المقهى. حين وصل، سلّمت عليه ثم قدّمته لفاطمه، فظل واقفاً في صمت، محدقاً في عينيها كمشدوه. قلت له إنّ فاطمة حبيبة صديقي ســـعيد. التفت بوجهه نحوي، وقال معلّقاً: «يابخته. اسم على مسمى!». دخلنا معاً إلى المقهى، حيث عرّفته بسعيد، وسحب كرسياً، وجلس بيني وبين فاطمة. دار حديث تعارفي بين سعيد ومجيد، ثم دخل سعيد في الموضوع، مباشرة، طالباً رأي مجيد. قال مجيد إنّ زوجته اتصلت بصديقة لها، تعمل محامية، وعرضتْ عليها الموضوع مناشدة رأيها. قال أيضاً إنّ المحامية ردت بتأكيدها على أن الموضوع ليس سهلاً، لأن الولدين قاصران، مما يجعل أمر عودتهما إلى أبيهما،

دون أمهما، مستحيلاً. وأن الحلّ الأمثل هو أن يسعى والدهما للعودة، والحصول على عمل في بريطانيا، ليكون بالقرب من ولديه حتى يكبرا. أنصت سعيد صاغياً إلى كل كلمة قالها مجيد، ثم أبلغ مجيد بقراره زيارة المرأة في بيتها، بلندن، في محاولة لاقناعها بالعودة وولديها إلى بيت الزوجية في ليبيا. قال مجيد إنّه لا يرى بأساً من المحاولة، إلاّ أنّه يعتقد أن النتيجة لن تكون ايجابية.

غادرنا المقهى، وأتجهنا للبحث عن مطعم لتناول طعام العشاء. قال مجيد إنّه لا يحب تناول أي طعام في مطاعم ادجوار روود. وعرض أن يأخذ ثلاثتنا بسيارته، إلى مطعم سمك مشهور يطل على النهر في منطقة «بترسي». وافقنا على العرض، الذي بدأ مغرياً لي، لأنه سبق لي زيارة المطعم، وتناول عدة وجبات فيه. رافقنا مجيد حتى موقف سيارته، واستقلنا السيارة متجهين لبترسي.

أبحر مركبي.

نهارٌ مختلفٌ جداً

بعينين شبه مغمضتين، ورأس «مكفوخ»، ظللت أراقب، وأنا مستلق في سريري، شمساً / طفلةً، تمرح على جدران حجرة نومي. على منضدة المكوى، بقرب النافذة المطلة على حديقة بيت الجيران، رأيتُ، ما كنتُ ارتدي من ملابس، في الليلة الماضية، مكوّماً فوقها بطريقة أزعجتني. ألقيتُ نظرةً على المنبّه، الموجود على المنضدة الصغيرة، بجانب السرير. لمحتُ عقربي المنبّه يشيران إلى الساعة الثانية عشرة والربع ظهراً، فنهضت منزعجاً، وغادرتُ، دفء فراشي، شبه عارٍ. اتجهت، مسرعاً، نحو باب الحجرة، في طريقي للحمّام. على بُعْدِ خطوة صغيرة، من باب حجرة نومي، سمعتُ صوت موسيقى يصلني من حجرة الجلوس! توقفتُ من فوري في مكاني. بهدوء، اختلستُ، كلص محترف، نظرةً إلى حجرة الجلوس. الحجرة يغمرها ضوء النهار، ومارسيل خليفة يعزف، بعذوبة، على العود، وأمام أرفف المكتبة، التي تحتوي على كتبي، تقف سيدة بيضاء لون البشرة، معتدلة الطول تتطلع إلى عناوين الكتب. كانت ترتدي الروب الأزرق اللون، الذي أعلّقه في غرفة الحمّام، ويلتفُ حول جسمها باحكام، مبرزاً تفاصيل ردفيها. في نهايته، تبرز ساقان أنثويان، ممتلئان، ينتهيان بقدمين صغيرتين، حافيتين، وشديدتي البياض. شعر رأسها قصير، لونه بين الأحمر والكستنائي. تقهقرتُ إلى الخلف، وعدتُ إلى حجرة نومي، فاغراً فمي من الدهشة. أستندت الى الجدار القريب من الباب، وظللتُ أفكر فيمن تكون تلك السيدة، وكيف وصلت إلى شقّتي؟ حاولتُ تذكّر أحداث الليلة الماضية في المطعم، إلاّ أنّ ذاكرتي كانت شاشة بيضاء. تحت منضدة المكوى، رأيتُ ملابس نسائية موضوعة على بساط الأرضية، ومرتبة بعناية، وإلى جانبها حقيبة نسائية. تحركت، بهدوء، نحوها. التقطت الحقيبة من على الأرض، وفتحتها، وألقيت نظرة على ما بداخلها. لفت نظري بطاقة بها صورة ومغلفة بالبلاستيك. رفعت البطاقة، وقربتها من عينيّ. رأيت صورتها: وجه جميل، وعينان مشرقتان. بطاقة صحفية. الاسم: سالي جين ديفيز. وكالة الصحافة المتحدة للأنباء. أعدت البطاقة إلى مكانها، وأغلقت الحقيبة، وأعدتها إلى الموضع الذي كانت فيه. أدركتُ أنّ شيئاً ما، لابد وأن حدث، الليلة الماضية، في المطعم ولا أستطيع تذكّره. تذكّرت أن أربعتنا، أنا ومجيد وسعيد وصاحبة سعيد، أكلنا الكثير من الطعام، وشربنا الكثير من النبيذ الايطالي. وأذكر، أن أربعتنا، كنّا في حالة من النشوة الرائعة، والتي أثارت أهتمام بعض الزبائن الأخرين بالمطعم، حتى أن بعضهم اشترى لنا زجاجة نبيذ على حسابه، ثم التحق بنا رجلان وامرأتان، لمشاركتنا المرح. لكني لا أذكر أنيّ رأيت سالي! «يا آلهي» قلتُ، في نفسي، محاولاً تذكر كم مرَّ من السنين على أخر مرّة، حدث لي فيها شيء من هذا القبيل.

بحثت عن هاتفي المحمول، وأتصلت برقم مجيد، إلاّ أن هاتف مجيد كان مقفلاً. اتصلت بهاتف سعيد، إلاّ أن هاتفه كان مقفلاً أيضاً. عرفت، بما لا يدع مجالاً لشك، بأني والرفاق الأعزاء قد تجاوزنا كل الحدود، في شرابنا ولهونا، وأنّني

شـخصياً : «غْفَسْت في القصعة!» قلتُ، في نفسي، : «الطير الحر وقت يُحْصُلْ ما يتخبلش.» اتجهت إلى خزانة الملابس، وسحبت قميصاً، وبنطالاً، وارتديتهما سريعاً، ثم غادرت حجرة النوم، وتوجهت نحو حجرة الجلوس، بقدمين حافيتين، وبخطوات واثقة، ومطمئنة، متظاهراً وكأن الأمر طبيعي جداً. لما رأتني سالي، ارتسمت على وجهها ابتسامة حلوة، وقالت محيية بسخرية: «ظهيرة طيبة». ابتسمت، وأعتذرت لها على تأخري في النوم، ومؤكداً، في نفس الوقت، أنّها المرّة الأولى، منذ سنين طويلة، التي لزمت فيها فراشي حتى هذا الوقت المتأخر. ضحكت سالي، وقالت معتذرة إنّها وجدت نفسها وحيدة في الشقّة، فأختارت الاستماع إلى شيء من الموسيقى لتبديد الوحدة ولحسن حظها فان الموسيقى التي اختارتها كانت جد جميلة. قلت لها إنها عزف منفرد، على آلة العود، لموسيقي عربي اسمه مارسيل خليفة، وتم تسجيله خلال حفلة أقامها، مؤخراً، في لندن، لكني لسوء الحظ لم أتمكن من حضور الحفلة، إلاّ أن صديقاً لي حضرها، وسجّلها على قرص سي دي، وأهداني نسخة منه. اقتربت سالي مني حتى شممت رائحة جسدها، ثم علّقت عينيها في عينيّ، وسألتني، وابتسامة صغيرة على شفتيها: «بالمناسبة كم عمرك؟» ابتسمت، وأجبت على سؤالها بسؤال: «بالمناسبة ما قولك بكوب شاي لذيذ، أو فنجان قهوة ساخن؟» ضحكت، وقالت: «يا لك من ثعلب مسنّ وماكر!». توجهت نحو المطبخ لاعداد الشاي فلحقتني. شعرتُ بها تقف خلفي من خلال أنفاســـها. واصلتُ أهتمامي باعداد الشاي. قالت لي: «إنها المرّة الأولى في حياتي، التي ألتقي فيها رجلاً، للمرّة الأولى وأصاحبه لقضاء الليلة معه في بيته منذ أول لقاء!» ضـحكتُ وقلتُ لها: «آمل ألاّ تندمي على ذلك يوماً ما.» حين جهز الشاي، أعددت كوبين، وقدمتُ لها واحداً، وحملتُ الكوب الأخر بيدي اليمنى، وتوجهت إلى حجرة الجلوس، فأفسحتْ لي الطريق، ودعتني أمرُّ إلى مقصدي، ثم تبعتني.

جلستُ على الكنبة. وضعت كوب الشاي على المنضدة الخشبية، في حين اتجهتْ هي نحوي، وجلستْ ملتصقة بي، وقبّلتني على خدّي. أعترف أنني ارتجفتُ، ثم ارتبكتُ، لكني، في نفس الوقت، انتشيت بدفء وحميمية شفتيها، على صفحة خدي غير الحليق. كنتُ أحسّ بدوامة كبيرة تدور في رأسي. كان السؤال الأصعبُ والأهمُ، بالنسبة لي، هو: «هل مارسنا الجنس معاً الليلة الماضية، أم أننا حين رجعنا، إلى شقّتي، من السهرة مخمورين، ارتمينا من شدة التعب خائرين على السرير، واستغرقنا في نوم حتى الظهيرة ؟» أقنعت نفسي بالاستمرار في اللعبة التي بدأتها، منذ استيقاظي، عملاً بحكمة الذئب: «اللي بتتلفته إجْرِيه.» قلت لسالي إنني أريد الاتصال برئيسي في العمل، لابلاغه بعدم قدرتي على الحضور. نهضتُ من الكنبة، وأتجهت إلى غرفة النوم، وأحضرت هاتفي، واتصلت بمديري معتذراً عن تغيبي دون سابق انذار. كانت سالي تنظر، نحوي، بعينين اختلط فيهما العسل باللوز. تمسك يدها اليمنى بكوب الشاي، وتتكئ بذقنها على راحة يدها اليسرى. اقتربت منها، واقترحت عليها أن نخرج لتناول الغداء معاً في ويمبلدون. هزّت رأسها موافقة، وقالت إنها ستذهب لاعداد نفسها للخروج. انتظرت حتى غابت، ثم أطلقت زفيراً قوياً كان محبوساً، في قلبي، كمرجل يغلي. اتجهت إلى هاتفي المحمول، واتصلت، مجدداً، بمجيد، لكن دون جدوى. أعدت الاتصال بسعيد، فرد عليّ بصوت خائر، ومجهد. قال، متثائباً، إنّه يشعر بالتعب، ويريد العودة إلى النوم. طلبت منه ايضاحاً عما حدث، الليلة الماضية، فرد عليَّ بملل قائلاً: «العادة ياداده.» سألته: «وسالي؟» أجابني بسؤال: «سالي مَنْ؟» قلت له، بصوت حرصت أن يكون هادئاً، ومشحوناً

بتوتري في نفس الوقت: «إنها السيدة التي رجعت معي البارحة إلى الشقّة.» قال لي بنفس بلادة صوت شبه نائم: «لا علم لي بأي سيدة.» قلت في نفسي: «جي بيكحّلها عَمَاها» طلبت، منه أن يعود إلى نومه، وأقفلت هاتفي. ازدادت حيرتي عتمة، وتبين لي أن «البحرْ فيه كلبْ»، بمعنى أن الرجيم مجيد هو من ورطني في هذه المعمعة، وهو، الذي حين ألقاه، أو أحادثه هاتفياً، من بامكانه أن يعيد ايقاع قلبي إلى سابق عهده، وينسف جدران حيرتي المعتمة.

لحقت بسالي، في غرفة النوم، فوجدتُها، تقف أمام مرآة خزانة الملابس، تمشّط شعرها بفرشاة شعر رأسي البلاستيكية، الرمادية اللون، والرخيصة الثمن، التي أحتفظ بها على رفّ صغير في حجرة الحمّام. قالت لي إنها ستكون جاهزة، خلال دقائق قليلة، وطلبتْ مني أن أتهيأ للخروج. انتظرتُ، حتى انتهت من تمشيط وترتيب شعرها، ثم اقتربتُ من خزانة الملابس، وفتحتها وظللتُ، للحظة، أفكر ماذا سأرتدي من ملابس. سحبت بنطال جينز، وغياراً داخلياً، وكنزة صوفية غامقة الزرقة، ثم أغلقت باب الخزانة، وتوجهت نحو الحمّام. ضحكت سالي، وتساءلت: «هل تخجل من تغيير ملابسك أمامي؟» فاجأني السؤال، وازداد نبض قلبي ركضاً. لكني ابتسمتُ لأن الشيطانَ المسن، المتظاهر بالنوم، في داخلي مراقباً ما يحدث، تحرّك سريعاً، من مكانه، وهمس في أذنيّ بكلمات قليلة أضاءت بعضاً من عتمة حيرتي!!

صرختُ بلا صوت: «وينك يامجيد؟»

تركت حجرة النوم إلى الحمّام.

غادرنا الشقّة، وسرنا معاً على الأقدام، صامتين باتجاه ويمبلدون. كانت شمس دافئة تغمر الدنيا، وعلى الأرصفة مازالت آثار العاصفة الثلجية ملحوظة، وفي خلايا رأسي كدرٌ لم يصف بعد مما حدث، ويحدث لي.

انعطفنا يساراً نحو شارع ليوبولد أفنيو. وحين اقتربنا من حانوت لبيع الصحف، يديره رجل هندي عجوز، استأذنت من سالي لشراء علبة سجائر. دخلت إلى الحانوت، وابتعت ما أريد، وعدت إلى سالي، وواصلنا سيرنا. أخرجتُ علبة سجائري، من جيبي، وفتحتها. سحبتُ سيجارة منها، وضعتها بين شفتيّ، وأرجعت العلبة في جيبي، ولم أشعل السيجارة مفضّلاً التريث حتى نصل إلى مكان نستريح فيه.

سألتني سالي: «منذ متى تعيش في شقّتك؟» كان صوتها هادئاً، وأنثوياً، جعلني ألتفت اليها، بوجهي، كي أتامل تفاصيل الفم الذي انبعثت من بين شفتيه ترانيم السؤال. قلت لها إنّني انتقلت للسكنى بها منذ أكثر من ثلاث سنوات. قالت لي إنها شقّة مريحة، ولطيفة، وأفضل من شقّتها. سألتها: «اين تقع شقّتك؟» ضحكت سالي، بصوت عال استغربتُهُ، إلاّ أن ردّها فاجأني. قالت لي: «هل يعني ذلك أنّك كنتَ لا تنصت لما كنت أقوله ليلة البارحة؟» نغزني السؤال. فقلت، مدارياً حرجي، إنّني ربما نسيتُ. قالت هي لقد قضينا أكثر من ساعة نتناقش حول شقّتي، وكنتَ تصرُّ عليَّ بتركها، لأنّها -حسب وصفك- لا تليق بامرأة مثلي، ووعدتني أن تساعدني في البحث عن شقّة أخرى أفضل. شعرتُ بالدماء تصعد إلى وجهي من شدة الحرج. وأيقنتُ أنّه لابد لي من مواجهة الموقف مع سالي، والاعتراف لها أنّني لم أعد

أتذكّر شيئاً من تفاصيل ليلة البارحة، وأنّ عليها مساعدتي في الخروج من الورطة، التي وجدتني فيها. شيء ما، في داخلي، جعل الكلمات تتوقف على حافة شفتيّ. خمّنت أنّه من الأفضل لي التزام الصمت، حتى أسمع بالتفصيل الممل ما سيقوله لي صديقي مجيد.

حين وصلنا ويمبلدون، اقترحت سالي أن نقوم بجولة فيها قبل الغذاء. وافقتها، وتلقائيا وجدتني أقوم باداء مهمة مرشد سياحي. بعد الجولة السريعة، اخترنا تناول وجبة الغذاء في مطعم، يقدم وجبات فرنسية، في شارع ويمبلدون هيل روود. كان المطعم صغيراً، والمناضد القليلة غير مشغولة، باستثناء واحدة، تقع في أقصى الزاوية المقابلة للمدخل. قلت لسالي إنني أفضّل أن نجلس عند إحدى المنضدتين الخارجيتين الموضوعتين، على الرصيف، أمام المحل كي ننعم بدفء الشمس. نظرت إليّ سالي نظرة مستنكرة من عينيها، وقالت مبتسمة: «لماذا اللف والدوران؟ كان من الأسهل عليك أنّ تقول الحقيقة. أنت رجل مدخّن وتريد تدخين سيجارتك المدلاة من شفتيك، ولا علاقة لدفء الشمس بالموضوع!» ابتسمتُ والتزمت السكوت. خرجتُ من المطعم، فتبعتني، وجلسنا على كرسيين، حول إحدى المنضدتين غير الشاغرتين. ولّعت سيجارتي وسحبت نفساً عميقا.

منذ تركي لبيت الزوجية، في برايتون، وانتقالي للعيش، وحيداً، في لندن، تقصّدت أن أبتعد، أكبر مسافة ممكنة، عن كل ما من شأنه أن يورطني في علاقة ارتباط عاطفي مع الجنس الآخر. وظلت علاقتي بالنساء مثل علاقة الذئب بالمنداف، بمعنى التيقظ والأحتراز، ثم الهرب جرياً بعيداً، عن كل تراب متحرك، يشي بامكانية وجود منداف تحت سطحه. التحرك في لندن، بحاسة الذئب، مكّنني من عدم الوقوع في مطب مناديف علاقات نسائية، كانت تلقى في طريقي، وأتاح لي الفرصة لأعيش حياة بوهيمية أقرب الى الصعلكة، وحيث أُمسي أبيتُ. لذلك، حينما استيقظت من نومي، تلك الظهيرة، وأكتشفت وجود سالي «واخذة راحتها» في شقّتي، تحركت حاسة الذئب في داخلي، وبدأت أتحسس، بحذر غريزي، التراب الذي أتحرك فوقه طوال الوقت الذي جمعنا. حين أنتهى بنا المطاف جالسين على كرسيين، حول منضدة في مطعم صغير، يقع في شارع ويمبلدون هيل روود، لتناول وجبة غداء معاً، كان عقلي يمور، ويتحرك بسرعة هائلة، مفكّراً في طريقة تمكنني من التخلص منها، في أقرب وقت ممكن، وبلا مفاجآت كارثية. لكني وفي نفس الوقت، كنت متلهفاً أكثر لمعرفة ما حدث معي، الليلة الماضية، وما ستقوله هي. وكي لا أقع في مطبات الاسئلة، التي كنتُ أتوقع أنها ستمطرني بها، سارعتُ بانتهاز الفرصة، وتسلّمت دفة الحديث، مختاراً الابحار في المياه الآمنة التي خبرتها. قلتُ بصوت حرصت أن يكون ودوداً: «بعد عناء العاصفة الثلجية، ها نحن، الآن، نستمتع بطقس لطيف ومشمس.» ودون انتظار لما تقوله، بدأت أحكي عن أيام العاصفة وما تخللها من حوادث، وبسلاسة متقصدة بدأت أقصُّ تفاصيل مملة عن العاصفة الثلجية السابقة، التي حدثت منذ عشرين عاماً، حينما كنت أواصل دراستي الجامعية بجامعة ريدنغ.

قاطعتني سالي متسائلة: «هل سبق لك تناول وجبة في هذا المطعم؟» أجبت نافياً، ثم سألتها عن السبب. قالت إنّها تود أن تعرف إن كان علينا الانتظار حتى يأتينا النادل لخدمتنا، أم أنه يتوجب على أحدنا النهوض من مقعده، والتحرك

إلى الداخل ليأتينا بالطعام . قلت، بدون تردد، فكرة طيبة. نهضتُ من مقعدي، وتوجهتُ إلى داخل المطعم، وعدت حاملاً معي قائمتين للوجبات التي يقدمها المطعم. جلستُ على الكرسي، وقدمتُ لها واحدة. انغمس كلانا في قراءة القائمة. بعد فترة قصيرة، قالت سالي، وعيناها مغروزتان في القائمة، إنّها ستكتفي بشوربة عدس وسلطة، ثم توجهت نحوي بالسؤال: «وأنت؟» قلت لها إنّني سأكتفي بطبق سمك، وبطاطس مقلي. جاء النادل، أخيراً، وسجّل ما طلبنا، وسألنا عما نريد من شراب. طلبتْ سالي كأس نبيذ أبيض، فطلبت مثلها، وأنصرف النادلُ، وبقي الصمت يحوطنا من كل الاتجاهات. تشاغلتُ بالتدخين، وبمراقبة حركة مرور السيارات، وهي تعبر في اتجاهيّ الطريق. قالت سالي، بصوت هادئ ورقيق، إنّها تشعر بعدم الرضى، على نفسها، بسبب تصرفها غير اللائق. أبديت استغرابي لما قالته، وسألتها توضيحاً. أعادت على مسمعي ما قالته لي، في الشقّة، من أنّها، المرّة الأولى، التي ترافق فيها رجلاً لا تعرفه، إلى بيته، منذ أول لقاء. قلت لها، بمضض، إنّه لا داع للعودة إلى هذا الموضوع، ثم أضفتُ، مازحاً، على الأقل، في المرّة التالية، حين يحدث فيها لكِ شيء مثل هذا، لن تكون المرّة الأولى، وتتعاملين مع الموضوع بشيء من الراحة النفسية. ضحكت سالي، بصوت عال، ثم قالت إنّه لا مجال، بتاتاً، لمرّة ثانية. جاء النادل بكأسي نبيذ أبيض، ووضعهما على المنضدة، وأنصرف. رفعت كأسي وقلت لها باللغة العربية: «في صحتك». رفعت سالي كأسها، وسألتني مستوضحة ما قلت. شرحت لها ما عنيت. قالت إنّها كانت تظن أن شرب الكحول محظور في البلاد الاسلامية. ابتسمت، بسخرية، وقلتُ لها ناصحاً: «دعينا من هذا»، ثم رفعت كأسي، ورشفت رشفة صغيرة. أعدت الكأس أمامي على المنضدة، وظللت أراقبها وهي ترفع الكأس، بتؤدة، إلى فمها، وترشف منه رشفة صغيرة، وتعيده، بتؤدة، أمامها، على المنضدة. رفعتْ وجهها، عالياً نحو سماء ويمبلدون، متلذذة، باستسلام، لدفء الشمس.

صرختُ في داخلي: «وينك يامجيد؟»

سألتني سالي: «هل تتردد على ذلك المكان كثيراً؟»

أجبت عن السؤال بسؤال، ودهشة: «أي مكان؟»

قالت هي ضاحكة: «أقصد النادي الليلي، الذي التقينا فيه ليلة البارحة».

قلت في نفسي: «الله لا يسامحك يامجيد»، ثم قلت، بعفوية، إنها المرّة الثانية، أو الثالثة على ما أذكر، وعلى فترات متباعدة، صحبة اصدقاء.

ثم سألتها: «وأنتِ؟»

قالت إنّها كثيراً ما كانت تتردد على النادي، بسبب قربه من مكان سكناها، إلاّ أنّها، خلال السنة الأخيرة، وبسبب ظروف العمل، لم تعد تجد الوقت الكافي للسهر والمرح. سألتها، مرّةً أخرى، عن طبيعة عملها. قالت إنّها تعمل في شركة تأمين كبيرة، وعملها يتطلب الكثير من السفر خارج لندن.

شعرت بقلبي ينكمش، فجأة، في صدري، لدى سماعي ما قالت، مدركاً أنّ وراء الأكمة سراً لا تود إطلاعي عليه، وإلاّ ما الداعي لأن تحاول إخفاء ما كنت قد عرفته عن عملها دون أن تدري؟ قبل ان أفيق من صدمة كذبتها، صدمتني هي بسؤال آخر: «لماذا أودعتَ السجن؟» أعترف أن السؤال فاجأني، من حيث لا أدري، ثم تنبهت إلى حقيقة أنّني، في الليلة السابقة، تحت تأثير الكحول، قد أفرغت كل ما في جوفي من معلومات، وليس أمامي من خيار سوى التعامل مع الموقف بأريحية. كانت سالي تنظر إليّ بعينيها اللتين امتزج فيها العسل باللوز، في انتظار سماع جوابي. رفعت كأسي ورشفت منه رشفة، ثم قلت لها إنّني على غير استعداد الآن للخوض في هذا الموضوع، لكني أعد بسرد القصة كاملة بتفاصيلها في لقاء آخر. ابتسمت سالي وقالت: «للاسف الشديد لن يكون لنا لقاء آخر.» شعرتُ بقلبي يكاد يطير، من الفرح، لدى سماعي ما قالت، إلاّ أنّني أخفيت سروري، وسألتها عن السبب. قالت لي إنّها بعد أسبوع، من الآن، سترحل نهائياً عن لندن، لتبدأ حياة جديدة في فيينا. قالت، أيضاً، إنّها تحصلت على عمل بمنظمة الاوبك، وهي تعتقد أنها فرصة ثمينة لأنها تتيح لها العيش بعيداً عن لندن، وذكرياتها الأليمة، وخوض تجربة حياة جديدة، في بلد آخر ومع أناس آخرين. جاء النادل بطلبية الطعام ووضع الصحون على المنضدة، وتمنى لنا شهية طيبة، وأنصرف. التقطت الشوكة والسكين، وبدأت الأكل، إلاّ أن سالي ظلت تنظر إليّ في صمت، دون أن تحرك ساكناً، ثم فجأة انهمرتْ في البكاء.

صرختُ بلا صوت: «الله لا يسامحك يامجيد».

تظاهرتُ بالأكل.

نهارٌ للبوح

العزيز محمد

ردّكَ، هذه المرّة، وصل سريعاً، محمّلا بخبرين طيبين، سُعدت بهما كثيراً لسببين:

أولهما المتعلق باقتنائك الأسبوع الماضي جهاز حاسوب جديداً، الأمر الذي يعني لي أن شجاعتك تمكنت أخيراً من التغلب على بخلك المقيت، ومكّنتكَ من حسم أمرك بتخلصك من جهاز حاسوبك القديم الذي يفوق عمره عمر أكبر اولادك سنّاً، مما جعلك «تحط «يدك بتردد في جيبك ثمناً لجهاز جديد والذي آمل الا يموت في بيتك من الشيخوخة مثل سلفه.

ثانيهما المتعلق باعجابك بالموضوع المقترح لروايتي الاولى، وحثّك لي على البدء في المشروع بأسرع ما يمكن، الأمر الذي جعلني اتشكك وأستغرب لهفتك وحماسك وآمل ألاّ يكون وراء الآكمة شيء ما، بمعنى أنني أتمنى ألاّ تكتب إليّ في الأيام القادمة لتخبرني أنك بصدد ارسال ابنتك أو ابنك إلى بريطانيا في دورة لتعلم اللغة الانكليزية وتريد مني الاهتمام بها أو به!! ها ها ها ها!

ما أثار استغرابي، أيضاً، في رسالتك هذه، أنك، وللمرّة الاولى، لم تسألني عن أخبار لندن مما جعلني أتساءل عن السبب، أو الأسباب وراء هذا التغير المفاجئ جداً!

لكني أنتهز هذه الفرصة لأبلغك ما تعرفه أنت جيداً. وهو أن لندن بخير وعافية. وأنها خرجت من العاصفة الثلجية الأخيرة بسلام. ودخلتْ، للمرّة التي لا أعرف عددها، في الكساد الذي طال كل شيء حتى وسائل الاعلام، التي تأثرت مداخيلها بسبب النقص الملحوظ في الاعلانات. ورغم ذلك يا صديقي العزيز، فإن لندن مازالت سادرة في غيّها. الشوارع مزدحمة بحركة مرور السيارات. والأرصفة مزدحمة بالبشر من كل فج عميق. وسائل المواصلات العامة مزدحمة. ومازالت خدماتها في تدهور مستمر في تناسب عكسي مطّرد مع ارتفاع أسعارها. المقاهي مزدحمة. البارات مكتظة، المطاعم، المطارات....الخ مزدحمة. ومازالت لندن تعاني الاحباط من جراء تولي عمادتها، العام الماضي، عمدة جديد من حزب المحافظين، شديد الافتتان بنفسه، ولا عمل له سوى اجراء المقابلات التلفزية والمسموعة وفي الصحف، ويتكلم الانكليزية بلكنة ارستقراطية تشمئز منها حتى العائلة المالكة. ومازال الضباب يستحوذ على قلب السماء والأشياء نهاراً وليلاً. ومازالت براعم أغصان الشجر في بداية كل ربيع تتفتح بالدهشة كل صباح، وطزاجة العشب في الحدائق تستقطب العشاق، ومازالت الأنوثة تثير شهية النهار وقلبي، ومازالت موسيقى «الروك اند رول» و«الهب هوب» و «الراب» تضرم

حرائق الإيقاع في جسد العالم. وباستثناء لامبالاتها المعهودة بأمثالي، والزيادة غير العادية في أعداد الكلاب، والمهاجرين، والمومسات، والجريمة، والأسعار، مازالت لندن على سيرتها الأولى، ومازالت المدينة التي نفتقدها ولا تفتقدنا، ونحبها ولا تحب غير نفسها!!

أنا، هذه المرة، سوف أتقصد عدم إبلاغك بآخر التفاصيل في حياتي، لأنّها لا تسرّ حتى العدو. أعني أنني في خير وعافية من الناحية الصحية. وما زال جسدي يرفض ويقاوم الكهولة بشدة، وقلبي يرف كطير مراهق. ومازلتُ محكوماً حكماً مؤبداً بالأمل بغدٍ مشرق وانساني.

المشكلة التي أعاني منها، منذ أن بدأت التفكير في كتابة الرواية، هي انشطار دماغي إلى شطرين غير متساويين. أحتل موضوع الرواية الشطر الأكبر من دماغي بالكامل، في حين أن الشطر الآخر والأصغر منه تكفل بتسيير شؤون حياتي في مدينة تحتاج من مهاجر مثلي إلى امتلاك دماغين، على أقل تقدير، كي يتدبر فيها بسلام أمر شؤونه المعيشية.

هل تصدّق أني، في بعض الأحيان، من شدة هوسي بالرواية، أكاد أستوقف أي عابر سبيل في الطريق لأحكي له أو لها عنها، ولكي أستمع إلى ما قد يقدم لي من نصائح!! تلك الليلة، كنت جالساً على مقعد في قطار، عائداً إلى بيتي، حين توقف القطار في محطة «ايرلز كورت»، وصعد رجل كهل اختار الجلوس في المقعد الشاغر المجاور لي. لسوء حظي، تلك اللحظة، كانت كل خلايا دماغي منساقة بهمة ونشاط في التفكير في المدخل، الذي سابدأ به الرواية. اكتشفت أن دماغي مزدحم بمداخل وببدايات عديدة، الأمر الذي زاد في حيرتي وارتباكي. التزم العجوز الجالس إلى جانبي الصمت، مثل غيره من المسافرين، الذين تناثروا في العربة، جالسين على مقاعدهم متعبين، يحشرون عيونهم في جرائد تمتلئ بأخبار الكساد والافلاس وتزايد البطالة. أذكر أنّ الدنيا كانت «مقلوبة «في رأسي وحواسي وقلبي، لكني جازماً أؤكد لك أنّه لم تصدر من بين شفتيَّ كلمة واحدة. أحسست بجاري العجوز يميل عليَّ بوجهه، ويسألني بصوت واهن:» عفواً ماذا قلتْ؟» التفت نحوه مندهشاً، وأجبته على التو واللحظة بأني لم أنبس بكلمة. ابتسم العجوز وغمغم قائلاً: «الحقيقة أكثر غرابة من الاسطورة!». تظاهرت بعدم سماعه، إلاّ أنّ الجملة التي نطق بها استحوذت على اهتمامي. عاد العجوز إلى صمته، بعد أن قدّم إليَّ دون أن يدري الجملة/المفتاح، الذي سأفتح به أقفال المدخل الذي سيقودني إلى إضاءة دهـاليز روايتي الاولى.

«الحقيقة أكثر غرابة من الاسطورة!» تصور، أيّها الصديق العزيز، لو أنّني ظللت أفكر مائة عام في جملة فلن أتي بجملة أقوى ولا أجمل من هذة، كمفتتح لعمل روائي في غرابة الرواية التي أنوي تأليفها. حين عدتُ إلى شقتي، اضأت حجرة الجلوس، واتجهت مباشرة إلى مكتبي وجلست على الكرسي، وبدأت أفرغ على الورق تفاصيل الضجيج الهائل في عقلي وقلبي الذي بعثرني شظايا طيلة الأيام السابقة.

تلك الليلة، حين انتهيت من الكتابة تركت كل شيء على ما هو عليه على المكتب، وأويت إلى فراشي متعباً منهكاً، لكني أحسست في أعماقي بمياه نهر عذب وسخي تجري بخفة ورشاقة، رقراقة، وصافية كوجه نبي، وعلى ضفتيه تزاحمت أشجار باسقة أغصانها بديعة الاخضرار ومثقلة بيانع الثمار.

تلك الليلة:

«سلامٌ هي حتى مطلع الفجرِ.»

أنا، الآن، جاهز للابحار بقاربي الصغير، وبلا بوصلة، في أكثر المحيطات عمقاً وخطورة. لكني أعلم، ايضا، بضرورة تزودي بالكثير من المؤونة والعزم والصبر، كي أقاوم رغبتي الحارقة في الكتابة. قليل من الصبر مهم جداً لي، لأنّه يساعد على انضاج الأمور في داخلي بشكل أفضل. ولأن، على رأي شاعرنا الرائع محمد الشلطامي، «الأغنية كلما تُحبس في القلب تطيب.» وتحضرني، الآن، حكاية سمعتها قديماً، تُروى عن الزعيم المصري سعد زغلول زعيم حزب الوفد وقائد ثورة 1919، والذي حسبما يقال وسمعت أنّه إذا كان في عجلة من أمره لقضاء شأن من شؤونه كان يقول لسائق سيارته «بشويش يا أسطى لأحسن مستعجل!»

أخيراً، سوف أضع نصب عينيّ الحرص على إبلاغك بآخر التطورات في مشروعي الروائي، وأعاهدك بأنّني، في فترة لاحقة، سأرسل إليك بما أسوّده من صفحات، لأنّك تعلم تماماً أني لا أستطيع الاستغناء عن مشورتك والانتفاع بحكمتك.

دمت لي وطابت أوقاتك.

غادرتُ بيتي.

نهار غير عادي جداً

غادرت شقّتي صباحاً في طريقي قاصداً منطقة كيو جاردنز، حيث مبتغاي مقر الارشيف القومي. كان عليَّ السير إلى محطة قطارات ويمبلدون، حيث أستقل أي قطار أنفاق متجه شرقاً ويتوقف في محطة ايرلز كورت، ومن هناك أنتقل، عبر جسر داخلي، إلى الضفة الأخرى من المحطة حيث الأرصفة التي تتوقف عندها القطارات المتجهة غرباً لأستقل القطار المتجه إلى «ريتشموند» رحلة مكوكية: من الغرب إلى الشرق ثم العكس. ورغم الرماد الثقيل الذي يغلف السماء والقلوب ووجه الصباح، كنت أرى اشراقة فصل ربيع متجلية في تفتق براعم أغصان الشجر، وتفتح الزهور في حدائق البيوت الأمامية، التي كنت أمرّ بها في طريقي. وكنت، رغم ضجيج حركة مرور السيارات، أسمع سقسقة الطيور وهي تتقافز جذلى في براح قلبي. كنت أسير وحيداً في شارع طويل حفظتُ تفاصيله، يقود إلى محطة قطارات انطبعت خريطتها في أسفل قدميَّ، عبر توالي الأيام والشهور والسنين. وكنتُ، أيضاً، أحسّ ببهجة في داخلي لأنني ذاهب إلى مقر الارشيف القومي بحديقته الجميلة، وجوّه البحثي الاكاديمي، الذي يعيدني إلى بهجة أجواء أيام الدراسة في جامعة ريدينغ. في اليوم السابق، طلبت إذناً بالتغيّب عن العمل من رئيسي، وقررت زيارة المركز للاطلاع على الوثائق الرسمية الجديدة حول ليبيا، التي أفرجت عنها وزارة الخارجية البريطانية، بعد انقضاء ثلاثين سنة. كنتُ دوماً حريصاً على متابعة ما يصدر من وثائق حول ليبيا، لأهميتها التاريخية، وأيضاً لاشباع فضولي النهم لمعرفة الدروب والحنايا التي مرّت بها البلاد، خلال الأعوام الماضية، من وجهة نظر بريطانية رسمية.

كانت المحطة، حين وصلتها، وكما هو متوقع في تلك الساعة من الصباح، تموج بازدحام البشر وتسارعهم، وكأنهم بُعثوا من قبورهم في يوم حشر. تدبّرت طريقي بمشقة نحو القطار المتأهب للانطلاق، وجلست على مقعد شاغر بين سيدتين تفوح منهما روائح عطرية سريعة النفاذ إلى مسارب الروح الخفيّة. وضعت حقيبتي الجلدية القديمة على الأرضية بين قدميّ، بعد أن أخرجت منها رواية «شيطنات البنت الخبيثة» للكاتب البيروي «ماريو بارغاس يوسا» وأسترحت في جلستي، وبدأت القراءة حتى وصل القطار محطة ايرلز كورت. غادرت القطار إلاّ أنّ شدة الزحام اضطرتني إلى الوقوف في جانب على الرصيف وانتظار انجلاء غمّة الزحام البشري. بهدوء انسللت متابعا طريقي إلى الضفة الثانية من المحطة، ووصلت الرصيف الذي أريد، ووقفت منتظراً وصول قطار ريتشموند.

أنا رجل محافظ جداً على روتيني وعاداتي، مجرد خروجي بمقدار أنملة على ما تعودت من خطوط روتيني يجعلني أصاب بالهلع والارتباك. وبالتأكيد، أنا لست متفرداً في ذلك، ولا أختلف عن الملايين من البشر في مختلف بلاد الدنيا، الذين يعبدون الروتين ويتمسكون بما اكتسبوه من عادات. احدى العادات التي اكتسبتها منذ حلولي بالبر الانكليزي هي التيقظ

والأحتراس والانتباه لدى دخولي ووجودي بأي محطة قطارات. بعينيّ هاتين، اللتين سيملأهما يوما ما تراب الارض ويأكلهما دوده، رأيتُ رجالاً في كامل هيأتهم ونساء بكامل زينتهن يسقطون متدحرجين على درجات السلالم الاسمنتية من فوق لتحت. رأيت رجالاً ونساءً يتشاتمون بأقذع ما أحتوته قواميس اللغة من بذاءة، ويتنابحون كالكلاب على بعضهم البعض، ويتضاربون بينهم كالقرود. حرصي، أيضاً، دائماً يدعوني إلى تجنّب الوقوف قرب حافة الرصيف، الذي يقف عنده القطار، مهما كانت حدّة ودرجة الازدحام، خشية أن يتجرأ أحد ما، بغرض التسلية أو الجنون أو غيرها، ويدفعني إلى الهاوية تحت عجلات وحش حديدي هائل. من أكثر أسراري سريةَ سرٌ صغيرٌ أحتفظت به لنفسي، وأخفيته في حصن حصين عن الناس، ولم أسرُّ به إلاّ إلى صديق أو صديقين. وهو أنّني كثيراً ما تنتابني رغبة مجنونة لدفع شخص ما، يقف قريباً من حافة رصيف في محطة، إلى تحت عجلات قطار!! وجود رغبة مجنونة ومهلكة كهذة، لدى شخص مثلي، يبدو لمن لا يعرفه من الناس بالغاً وعاقلاً ومتزناً أرعبني، وجعلني أنحو دوماً لطلب السلامة، بالوقوف بعيداً عن حافة الرصيف، وظهري محمي بجدار أو لوحة إعلانات أو أي شيء آخر متوفر، بحيث لا تتاح أي فرصة تشجع من لديه رغبة كرغبتي، في فعل ما أنا أفكر في عمله لآخرين. الحقيقة أنا لم أكن مخطئا في اعتقادي هذا. منذ أشهر قليلة مضت، كنتُ أقرأ رواية عنوانها «تغريد البجعة»، لكاتب مصري اسمه «مكاوي سعيد»، ووصلت في قراءتي للنقطة، التي يدخل فيها بطل الرواية إلى محطة قطارات أنفاق مزدحمة في القاهرة، ويعترف فيها، خلال منولوجه الداخلي، برغبته في دفع شخص ما إلى تحت عجلات قطار! عندها تأكد لي صحة سوء ظني وعدم ثقتي بالبشر، وأزداد حرصي على الالتزام بقواعد السلامة، التي وضعتها لنفسي كلما دخلت أو وجدت في محطات قطارات.

كان القطار المتجه لريتشموند شبه خال. اخترت من بين المقاعد العديدة الشاغرة مقعداً بجوار نافذة، وجلست وحيداً، وبدأت من جديد متابعة قراءة الرواية. كنتُ قد وصلت في قراءتي للفصل قبل النهائي، الذي يغادر فيه بطل الرواية «ريكاردو»، لأول مرّة منذ سنوات طويلة، مقرّ إقامته في باريس، عائداً إلى بلده البيرو، عقب سماعه بمرض عمه، عندما رنّ جرس هاتفي المحمول. أخرجت الهاتف من مكانه، في الجيب الداخلي لمعطفي. كانت حسيبة على الخط. بعد السلامات، قلتُ لها بالانكليزية: «مرّ وقت طويل دون أن أراك أو أسمع صوتك! أين كنتِ مختبئة؟» ضحكتْ، وردت بالعربية متسائلة: «وأنتَ وينك؟» ثم سألتني بالانكليزية «لماذا لم تتصل بي منذ ذلك اليوم؟» قلتُ لها بالانكليزية مداعباً إنّها امرأة متزوجة، ولا بد أن أخذ ذلك في إعتباري، حتى لا تذهب بزوجها الظنون! ردّت على مزحتي بالعربية قائلة إنّ عذري أقبح من ذنبي، ثم سألتني بالانكليزية عن أحوالي. قلت لها بالعربية، إنّني على ما يرام، وأبلغتها إنّني جالس على مقعد في قطار أقرأ رواية، وفي طريقي إلى الارشيف القومي. سألتني بالعربية عن اسم الرواية واسم كاتبها فأخبرتها. سألتني مرة أخرى عن موضوع الرواية. فأخبرتها بايجاز، ثم أضفت بالعربية قائلاً إنيّ، بعد تجربة طويلة من المتابعة المستمرة، لم أعد أجد ميلاً كثيراً لديَّ لقراءة الروايات التي يكتبها كتّاب انكليز، بعد تبين لي أنّ عوالمهم الروائية لم تعد بقادرة على النفاذ إلى داخلي، ولمس أعماقي بالدرجة التي أحسّها وأنا أقرأ رواية لكاتب من شبه القارة الهندية أو من امريكا الجنوبية أو من أفريقيا. وباستثناءات قليلة، ثمة شيء ما ينقص الرواية التي يكتبها كتاب انكليز لا أعرف كنهه، يجعلها باردة لا تخاطب

الروح، ولا تجعل نبض قلبي يتسارع، وخلايا دمي تتقد من شدة مفعول السحر، مثلما تفعل بي الرواية التي كانت بين يديَّ. وأضفتُ موضحاً أنّه يبدو لي أن مولدي ونشأتي في مجتمع تتكلم فيه القنافذ، وتطير فيه الماعز، ويتحول البشر فيه إلى أغوال وطيور وثعابين، ويعيش فيه السحرة والمشعوذون كملوك، ويحكمه الأموات في قبورهم، جعلني أميل اختيارياً إلى تقبل وصفات السحرة، أينما كانوا،كبلسم لشفاء ما بقلبي من وساوس وعلل، ودواء لما في روحي من خوف ورعب. ويبدو أن ذلك، ودون وعي مني ولا تقصد، أنعكس، عبر توالي السنين، على ذائقتي الادبية الفنية، وجعلني التحوّل من تلقاء نفسي إلى مريد لكتّاب امريكا الجنوبية، أجلس في معيّتهم خاشعا، وأتلو أورادهم كمجذوب «خذاته الحضرة.»

ردت حسيبة بالانكليزية قائلة إنها تخالفني الرأي، وإنها ما زالت تجد الرواية التي يكتبها كتّاب انكليز ممتعة. وأن ما قلته بحق هؤلاء الكتاب هراء لا أجد من يوافقني فيه إلا قلة من الناس. ثم قالت: «أنت رجل غريب الاطوار. إذ كيف تجرؤ على اصدار حكم مثل هذا على الرواية الانكليزية؟ كم قرأت رواية انكليزية في كل حياتك. أرجوك فكر ثانية بما قلت لي!!».

ضحكتُ بصوت عال لما قالته، وانتقلت إلى موضوع آخر. قلت لها بالانكليزية هل تصدقي أنني اكتشفت أن هناك الكثير من القواسم المشتركة بيني وبين بطل الرواية التي بين يديّ. قالت حسيبة بتهكم واضح: «لابد أن يكون هناك تشابه بين الأبطال في الروايات والواقع!!» ثم أضافت متسائلة بالانكليزية: «وما وجه التشابه بينك وبينه يا بطلي المفضل؟» قلت لها بالانكليزية إنّ البطل في الرواية، اختار العيش في باريس بعيداً عن مدينته «ليما»، وبعد غيبة طويلة يعود إلى بلده وهناك يكتشف أنّه رغم عيشه في باريس لمدة طويلة وحصوله على الجنسية الفرنسية، فإنه ظل يشعر بأنّه كائن بلا جذور، ولم يحسّ في أي يوم من الأيام أنه صار فرنسياً، رغم جواز سفره الفرنسي. لكنه، في الوقت نفسه، يشعر بأنّه لم يعد بيروياً، لأنه ظل يشعر خلال الأيام التي بقاها في ليما بأنّه أجنبي أكثر مما هو عليه في باريس!!

قالت حسيبة بالانكليزية وبصوت من يعاني ألماً: «هو راجل مجنون. هل تعلم أنّك محظوظ جداً لأنّك تعيش في لندن بلد العلم والثقافة والفن والحضارة، وتعيش حياة طيبة. فمن أين تجد الغربة طريقاً إليك وإلى أمثالك؟» قلتُ لها بالعربية، بصوت خفيض، بأن الغربة التي أعانيها هي غربة الروح وليست غربة المكان. ضحكت حسيبة، وقالت لي بالعربية متهكمة «الله يكون في عونك وعون روحك المسكينة!!» وأضافت متسائلة: «ما أخبار روايتنا؟» ضحكتُ، وقلتُ لها بالانكليزية متسائلاً: «تقصدين روايتي؟» ودون انتظار لجوابها أبلغتها بأنّني مازلت في طور الاعداد والتخطيط، وأتوقع أن أبدأ الكتابة خلال فصل الصيف القادم. قالت حسيبة بلهجة ناصحة إنّ طول الخيط يضيّع الإبرة، وأنّه من الافضل طرق الحديد وهو ساخن.

ودّعتني بعد أن اتفقنا على اللقاء في الأحد القادم «بساوث بانك». ظللت جالساً في مكاني واجماً مفكّراً فيما قالته لي حسيبة، وتساءلت: «هل حقاً أنّني رجل غريب الأطوار؟»

وصل القطار محطتي المقصودة في كيو جاردنز. المحطة صغيرة وهادئة. وبدت لي من شدة قِدمها وكأنها عجوز، وقد استيقظت لتوّها من النوم. نزلت بتؤدة الدرجات الاسمنتية القليلة التي تقود إلى الخارج، ثم أخرجت علبة سجائري من جيب معطفي، ألتقطت سيجارة ووضعتها بين شفتيّ وأشعلتها، وواصلت سيري نحو مقر الارشيف القومي.

هدوء يستحوذ على المكان، حتى يكاد المرء يسمع دبيب النمل في أرجائه. اتجهت إلى المكان المخصص لاستيداع الأشياء الخاصة، حيث تخلّصت من حقيبتي، ثم توجّهت نحو صالة القراءة. قضيت قرابة ثلاث ساعات، ثم قررت الاستراحة قليلاً وتناول شيء من الطعام في كافتيريا الطابق الأرضي، لأسدّ به رمقي. كان الازدحام شديداً في الكافتيريا، مما حفّزني على مغادرة المركز إلى الخارج حيث الحديقة والبحيرة لأدخن سيجارة. تمشيت في الساحة الخارجية وأخرجت هاتفي المحمول، من جيب سترتي الداخلي وفتحته. وجدت قرابة سبع رسائل صوتية، وكلها من سعيد، يستفسر فيها عن وجودي، ويطلب مني الاتصال به لأمر عاجل. أغلقت الهاتف وأرجعته إلى سابق مكانه في سترتي، ثم أخرجت علبة سجائري، التقطت واحدة وأشعلتها ووقفت أدخن، مستمتعاً بمشاهدة البط يعوم في البحيرة، التي تسيطر على معظم مساحة الساحة الخارجية. رجعت إلى داخل المركز، واتجهت نحو الكافتيريا فوجدت أن الزحام في الكافتيريا مازال على حاله. توجهت نحو المكان المخصص لاجهزة الحاسوب للاطلاع على بريدي الالكتروني. لم أجد في بريدي ما يثير الاهتمام . أقفلت الجهاز وعدتُ إلى سابق مكاني في صالة القراءة دون تناول أي شيء.

بقيت في المركز إلى حين انتهاء الدوام مساءً. وحين غادرته قررت الذهاب إلى ريتشموند وقضاء بعض الوقت في التسكع على ضفة النهر للتمشي،خاصة أن ما يفصلني عنه من مسافة لا يتجاوز قطعها خمس دقائق بقطار الانفاق. توجهت من فوري إلى المحطة واستقلت القطار المتجه إلى ريتشموند. كان قطار الانفاق مزدحماً بالناس العائدين منهكين من أعمالهم. في محطة قطارات ريتشموند كانت حالة الازدحام غير عادية. غادرت المحطة، وسرتُ في الطريق الذي ينحدر باتجاه النهر. لم تكن المسافة التي تفصلني عن النهر طويلة. وكان طقس المساء منعشاً تزينه باقات الأنوثة، التي كانت تعطّر الجو بأريجها الفواح، وتحيل الأرصفة إلى مهرجان من أنوثة طاغية ورقص. رنّ جرس هاتفي المحمول. هذه المرّة لم استطع الهروب من سعيد. وصلني صوته محتجاً على عدم ردي عليه طوال اليوم. أبلغته بأنّ هاتفي كان مقفلاً، لأنيّ كنت في المكتبة. قال لي إنّه في ورطة، ولابد أن يزور المرأة التي فرّت بولديها، بعد أن حصل على عنوانها، ولابد من حضوري معه. اتفقنا على اللقاء صبيحة يوم الأحد.

واصلت سيري حتى وصلت النهر. عرجت على أول حانة وطلبت بيره. رنّ جرس هاتفي المحمول مرة أخرى. أخيراً، اتصل مجيد بي. وصلني صوته معتذراً عن الانقطاع، الذي دام قرابة ثلاثة أيام، لأنّه، حسب قوله، كان في رحلة عمل إلى غلاسكو باسكتلندا. سألني عن مكاني. قلت له إنّني في ريتشموند لغرض التسكع. أبلغني أنه سيلتحق بي خلال نصف ساعة.

حين وصل مجيد كنتُ قد انتهيت من احتساء كاس البيره الثانية وفي طريقي لاحتساء الثالثة. طلب مجيد بيره، فأحضرت كاسين لنا، وجلسنا نتحدث على رصيف اسمنتي قريب من الحانة ومطل على النهر. لاحظت أنّ مجيداً كان يخفي ابتسامة ماكرة منذ وصوله. وعرفت انّ اللئيم كان في انتظار سؤالي له عن سالي، وما حدث معها كي ينفجر في ضحك هستيري. إلاّ أنّني ارتأيت تجاهل سؤاله، وواصلت حديثي عن الطقس، ومهرجان الأنوثة الضارمة من حولنا. عزمني على سيجارة من سجائره وأشعلها لي، ثم نظر في عينيّ وتساءل: «شنو صار فيك؟» رددت على سؤاله بسؤال: «وأنت شنو صار فيك.» سألته عن السبب وراء أخذي معه إلى الملهى الليلي. قال لي إنّه اقترح عليّ الفكرة قبل خروجنا من المطعم فوافقته. قال لي إنّنا لدى خروجنا من المطعم وعودة سعيد وصاحبته إلى الفندق، توجّهنا معاً إلى محطة السيارات لنستقل سيارتنا ونمضي، إلاّ أنّني رفضتُ ركوب سيارته، محتجاً بأنّه يجب ألاّ يقود السيارة وهو في حالة سُكر. قال، أيضاً، الغريب إنّني كنتُ أصرخ بصوت عال، وباللغة الانكليزية رافضاً أن أستقل السيارة، حتى أثرت فضول من كانوا حولنا من الناس. وأنّه لم يكن أمامه من حل سوى رجائي أن أتكلم بالعربية، حتى لا يعرف الناس من حولنا الموضوع، وأنّي رفضت ذلك، وواصلت الاحتجاج بصوت عال كطفل .سألته عن قصة سالي. قال لي إنّه لا علم له بما حدث حقيقة، لأننا أفترقنا بعد أقل من ربع ساعة من دخولنا الملهى، حيث تعرّفتْ أنتَ، منذ الدقائق الأولى، بسيدة كانت تقف بالقرب منّا وبدأتْ معها حديثاً. وحين لاحظتُ انجذابكَ إليها وانسجامكَ معها تركتكما لحالكما واتجهتُ إلى جهة أخرى في الملهى، ثم بعد ساعة من الزمن بحثتُ عنكما في كل أرجاء الملهى، فلم أعثر على أثر لك أو لها. فخمّنتُ أنكما غادرتما الملهى معاً، إلى بيتك أو إلى بيتها، أو إلى مكان آخر. سألته عن السبب وراء عدم رده على مكالماتي الهاتفية في اليوم التالي. حدّق في عينيّ ولم يرد. أعدت السؤال عليه. عندها قال لي بالانكليزية وبشيء من غضب إنّه لم يرد لأنّه ظل نائماً حتى الثانية بعد الظهر ثم تلقى مكالمة هاتفية ترتّب عليها سفره في نفس النهار إلى غلاسكو. نهض من جلسته واتجه نحو الحانة لاحضار كأسي بيره آخرين.

أشعلتُ سيجارة.

نهار مؤلم جداً

سماءٌ رماديةٌ كالحة تمطر برعونة، وكأنها تتقصد تعكير مزاجي ومزاج النهار. غادرت شقّتي، وقادتني قدماي، بتردد ملحوظ، نحو عيادة طبيب أسنان تقع على مسافة قريبة جداً من مكان سكني. ولأني أكره رؤية أطباء الأسنان وزيارة عياداتهم، كنتُ، متى انتقلت من منطقة وأقمتُ في أخرى، أحرص على أن تكون عيادة طبيب أسناني قريبة من المكان الذي أقيم فيه، وبالتالي اغلاق جميع المنافذ أمامي على المراوغة وتفادي التغيب عن المواعيد المضروبة لي للزيارة والمعاينة.

في الثامنة صباحاً، كنتُ جالساً في غرفة الكشف على كرسي المعاينة الجلدي الضخم، فاتحاً فمي على اتساعه، ليتمكن الطبيب ومشارحه المعدنية المقرفة من التأكد من سلامة ما أبقت أيام السجن من أسناني صالحاً للعمل.

وأنا ممدد بطولي على الكرسي الطبي الضخم، رأيتني في العيادة الكئيبة بسجن الحصان الأسود بطرابلس، التي يديرها طبيب باكستاني، يساعده نائب عريف ليبي في الشرطة العسكرية، وفي حاجة ملحة للمساعدة الطبية أكثر منّي. كنتُ برفقة رئيس عرفاء في الشرطة العسكرية طويل القامة نحيف الجسم، وعلى وشك التقاعد، أطلقنا عليه اسم الممثل الامريكي «جون وين» بسبب وقفته الغريبة، التي تشبه وقفة راعي بقر أمريكي في حالة «انشكاح» غير عادي ومسدسه يتدلى من خصره بكسل. وقفتُ أمام الطبيب المرتعب خوفاً من رئيس العرفاء، مرتدياً زيّاً سجنياً متكوناً من سروال عسكري قديم أخضر اللون، ومن قميص عسكري نفس اللون، مكتوب عليه بطلاء أحمر في الخلف، وبخط شديد الرداءة «س ع» اختصاراً لكلمة سجين عسكري. وكنتُ سجيناً مدنياً، وكذلك غيري من رفاقي السجناء، إلاّ أن الحكومة قررت وضعنا في سجن عسكري، وتحت اشراف كتيبة من الشرطة العسكرية. تطلع الطبيب القصير القامة من خلف نظارتيه الطبيتين في شحوب وجهي، وسألني بلغة عربية مكسرة مما أشكو. كان جون وين واقفا وقفته المعهودة إلى جواري، وعيناه كذبابتين ملتصقتين بوجهي. قلت للطبيب إنني أشكو من آلام شديدة في أسناني منذ أكثر من أسبوعين. حرّك الطبيب الباكستاني عينيه باتجاه «جون وين»، ثم أعادهما باتجاهي. نهض من كرسيه، بكسل واضح، وتحرّك نحوي، وطلب مني أن افتح فمي ففعلت. تطلع بعينيه في فمي للحظات، وأبلغني أنني أعاني من التهاب نتيجة لتسوس ضرس. وأضاف بصوت خفيض، موجهاً كلامه لجون وين، إنّه يتوجب خلع الضرس في أقرب وقت ممكن. ردّ جون وين بسرعة، وبصوت مختنق بغضب، مخاطباً الطبيب قائلاً إنه لا ضرورة لخلع الضرس، وأن الألم سيخف باستخدام أقراص مسكنة. ردّ عليه الطبيب، بصوت منخفض النبرة وبلغة عربية مهشمة وخانعة، أن الأمور ستزداد سوءاً ما لم يتم خلع الضرس. صرخ جون وين آمراً الطبيب باعطائي أقراصاً مسكنة. تحرك الطبيب في وقفته، ثم توجه بخطوات منكسرة إلى منضدة قريبة، وضع فوقها أقراص دواء في زجاجات بلاستيكية صغيرة وبيضاء اللون. أفرغ من احداها عدة أقراص مضاد حيوي، وطلب مني ابتلاع قرص كل ست

ساعات. أخذتُ منه الأقراص، ووضعتها في جيب بنطالي. طلبَ مني «جون وين»،بصوت آمر، مغادرة العيادة فانصعتُ، وتحركت باتجاه الباب، وهو يتبعني كظلي.

عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، كنت خارج العيادة، وجهاً لوجه من جديد، مع سماء رمادية كالحة، تمطر برعونة، وكأنها تتعمد تعكير مزاجي ومزاج النهار، وأنا أسير مبللاً بماء المطر في الشارع، في طريقي إلى محطة قطارات انفاق ويمبلدون، من دون مظلة واقية. المطر والقطارات متلازمتان في حياتي، منذ أن وطئت قدماي أرض بلاد الانكليز. أحياناً، أحسّ أن الوقت الذي أقضيه في طريقي إلى، وعودتي من، محطات القطارات، والوقت الذي أقضيه متنقلاً في القطارات، أكثر مما أقضيه في بيتي وفي رفقة أصحابي. في تنقلاتي اليومية بالقطارات، قرأتُ كتباً وجرائد وصحفاً بلا عدد، وترجمتُ كتابين إلى اللغة العربية، ونمت ساعات طويلة، ومضغني الملل والضجر مليون مرة، ومازال. الأيام والشهور والسنون والساعات والدقائق والثواني تتوالى بسرعة، تنهب ما تبقى من أيام في عمر ضاع بين رطوبة وعفن سجون الثورة التي حلمتُ بها، وبين أرصفة مدن غريبة وباردة. تذكرتُ، بمرارة، حقيقة تاريخية وهي أن الصفة «ليبي» مرادف للصفة «مهاجر» والعكس صحيح. فالليبيون طوال تاريخهم القديم والحديث، أدمنوا الهجرة والعيش خارج حدود وطنهم. وأن قسوة الطبيعة ووحشية السلطة كانتا السبب وراء ذلك. بمعنى أن من لم يطرده الجفاف منهم خارج وطنه، هام في بلاد الله هرباً بحياته من بطش الحكومة!!

«أنا ليبي، إذاً فأنا منفي أو مهاجر!» واو...

تساءلتُ: هل حسيبة على حق؟

وما الجدوى من الانتماء إلى وطن لا همّ له إلاّ أكل أبنائه، أو حرقهم أحياء في أفران المنافي والمهاجر؟

تذكرتُ سؤال حسيبة لي مرّة: هل تسمّي بلاداً تُخصي فحولها وطناً؟

وما العمل يا حسيبة؟

كيف لنا العثور على درب يقودنا بسلام خارج النفق الذي يحتوينا؟

تمنّيت لو كنتُ مثل حسيبة، قادراً على رمي كل هذا الركام، الذي أحمله على ظهري، منذ سنين طويلة ورائي، وممارسة حياتي بعادية وروتينية.

وطنٌ واحدٌ وضيّق كحذاء صيني.

ومنافي عديدة، وليست واسعة من شدة الازدحام!

فإلى أين المفر؟

وصلتُ إلى مقر عملي، في اولد برومبتون روود، متأخراً قليلاً. وأنا أهمُّ بصعود درجات السلم التي تقود إلى حيث مكتبي، قال لي عامل الاستقبال إن شخصاً ما يريد مقابلتي. توجهت إلى الصالة المخصصة للزوار والضيوف، ففوجئت بسعيد جالساً في انتظاري. ابتسم سعيد ونهض من مكانه وصافحني. قال إنّه وصل ليلة البارحة مع حبيبته من مانشستر، بعد تلقيه مكالمة هاتفية من شركة مالية كان قد تقدّم لها بطلب توظيف، تطلب حضوره ظهيرة اليوم لاجراء مقابلة. لاحظت توتره قليلاً. هنأته على ذلك، وطمأنته بأن الامور ستسير على ما يرام. طلبتُ منه انتظاري في الصالة، ثم صعدت السلم إلى مكتبي، حيث تخلّصت من حقيبتي، وتوجهت إلى مكتب سكرتيرة رئيس القسم، الذي أعمل به، وأبلغتها أنّني سأتغيّب لمدة ساعة على الأكثر. نزلت الدرجات القليلة، ومررت على الصالة، حيث سعيد وغادرنا معاً المقر. في مقهى قريب، جلسنا معاً حول منضدة خارجية، وطلبتُ لنا قهوتين. منذ زمن لم أرَ سعيد يرتدي بدلة كاملة، بربطة عنق حريرية حمراء. قال لي إن حصوله على هذه الوظيفة يعني له الكثير جداً، وعبّر عن خوفه مما سيحدث في المقابلة المرتقبة بمقر الشركة. سألته عن فاطمة. فقال لي إنّه تركها بالفندق، الذي نزلا فيه الليلة البارحة، بالقرب من «ماربل أرش»، تستعد للخروج. سألته عن رأيها في العرض الوظيفي المقدّم له. قال إنها مرتبكة قليلاً، لأن حصوله على الوظيفة يعني انتقاله للاقامة بلندن بدونها، والعيش منفصلين حتى انتهاء السنة الدراسية، وحصولها على الماجستير. أخرج علبة سجائره وعزمني على سيجارة وأشعلها لي. تذوقت رشفة من فنجان قهوتي، ثم سألته عما جدَّ في موضوع المرأة، التي فرّت بولديها. قال لي إن دماغه مشغول بأمور أخرى، لكنه أبلغني أنه اتصل بها هاتفياً، وأبلغها بمجيئنا معا صباح الأحد لالتقائها. أعترف أن فكرة لقاء امرأة لا أعرفها، وبظروف كالتي تمرّ بها أزعجتني كثيراً. حاولتُ أن أقنع سعيد بالذهاب وحده وتركي لحالي، مؤكّدًا أنني لن أفيده، أو أفيد المرأة في شيء. رفض سعيد بعناد فكرة عدم مرافقتي له، وأصرّ على ضرورة حضوري معه. اتفقنا على اللقاء مساءً بنفس المقهى، الذي التقينا فيه في المرّة الاخيرة. طلبتُ منه الاتصال بي هاتفياً لدى انتهائه من اجراء المقابلة، واستأذنته في الانصراف، والعودة إلى مقر عملي.

قرابة الساعة الواحدة ظهراً، غادرت المكتب صحبة زميلين، في الساعة المخصصة للراحة وتناول الغداء. توقفنا عند نفس المقهى، لتناول وجبة خفيفة وشرب فنجان قهوة وتدخين سيجارة. رنَّ جرس هاتفي المحمول. سمعتُ صوت فاطمة، صاحبة سعيد، تبلغني أنها موجودة في محل ملابس باكسفورد ستريت، وأن بطاقتها المصرفية لم تعمل لسبب لا تعرفه، وترجوني أن أدفع مشترياتها ببطاقتي المصرفية عبر الهاتف، لأن سعيداً أقفل هاتفه، ووعدت برد ما سأدفعه من مال، حين نلتقي مساء. توليت العملية عبر الهاتف مع البائع في المحل بسرعة، وحين انتهيت رد الهاتف إلى فاطمة، التي شكرتني وأنهت المكالمة. رجعت مع زميليَّ إلى المكتب. بعد حوالي أكثر من ساعة، اتصل بي سعيد هاتفياً، وأبلغني أن اداءه في المقابلة كان على خير ما يرام، وأن الشركة ستتصل به في نهاية دوام اليوم أو في الغد على الأكثر، لابلاغه بالنتيجة. أنهيت المكالمة على أمل اللقاء فيما بعد.

عقب انتهاء الدوام اليومي، غادرت مقر عملي، واتجهت نحو «ساوث كنزنغتون» مشياً على قدمين مترددتين. لم يكن لديَّ ما أفعله، لكني قررت أنه بدل التوجه إلى شارع «ادجوارد روود» الكئيب، وانتظار سعيد وصاحبته هناك، يمكنني

قضاء بعض الوقت في «ساوث كنزنغتون»، ثم التوجه بقطار الانفاق نحو «ادجوارد روود». في منتصف الطريق غيّرت رأيي، وقررت التوجه إلى «كوينز وي» لزيارة مكتبة الساقي، ثم الطلب من سعيد وصاحبته اللحاق بي هناك، حيث يمكننا تناول العشاء معا. عدتُ أدراجي، وسرت باتجاه «نايتس بريدج» لاستقل الحافلة من هناك. مررت بمحلات «هاردوز.» بالقرب من محطة قطارات الأنفاق، حيث الركن الذي يسميه صديقي مراد «ركن الفتنة»، لمحت سالي واقفة، وكأنها في انتظار شخص ما. توجهت نحوها، وكانت عيناها مركّزتين على الجهة الأخرى. قلتُ هالو. التفتت نحوي، وفوجئت حين رأتني، ثم قالت: «هذا أنت مرة أخرى؟» هززت رأسي علامة الايجاب وابتسمتُ. سألتها عما تفعل. قالت إنها في انتظار وصول صديقتين لها لقضاء المساء صحبتهما وتناول عشاء أخيراً في لندن، لأنها في مثل هذا الوقت من نهار الغد سوف تكون في فيينا. تمنّيت لها قضاء وقت ممتع والتوفيق في عملها الجديد. قبل أن أغادرها، سألتني عن رقم هاتفي وسجلّته في حافظتها الالكترونية، ثم توادعنا، وواصلت طريقي إلى محطة الحافلة في الجهة المقابلة من الطريق.

وأنا واقف في انتظار الحافلة، شعرت بندم في داخلي على عدم سؤال سالي عن السبب، أو الأسباب التي دعتها لاخفاء جهة عملها عليَّ.

فكّرت في الرواية التي سأكتبها ذات يوم. تراءى لي أنّ امرأة في جمال وذكاء وغموض وتعقيد سالي، يمكن بشيء من التحوير والتكثيف، أن تكون الشخصية التي تتمحور حولها كل أحداث الرواية وشخصياتها الأخرى. أعجبتني فكرة أن تكون بطلة الرواية امرأة وليس رجلاً، لأنها، لو نفّذت بالشكل والطريقة التي أتخيّلها، فإنها ستمنح الرواية جاذبية مختلفة وتألقاً وأبعاداً عديدة، ويحتمل أن تدفع بي ككاتب إلى إرتياد آفاق ابداعية جديدة لا عهد لي بها.

قلت في نفسي متحسّراً، لو أنّ الله وهبني صبراً وسعة بال، لكنتُ عرفتُ قصة الحزن الذي وسم قلب سالي، وجعلها تتخلى عن لندن وأصدقائها وحياتها فيها، ولكنتُ استفدتُ من تلك التفاصيل المهمة في بناء وتأثيث الشخصية الرئيسة بالرواية التي أفكر في كتابتها.

أقبلتْ الحافلة.

نهار سبت آخر «ملخبط» جداً!

أنا العامل المشترك الذي يجمع ما بين حيرة فيروز حين تغنّي: «أنا عندي حنين ماباعرف لمين» وبين رسوخ قناعة أمي على أن «أيام الله كلها سوا.» إذ رغم تقادم السنين، مازلتُ كلما سمعتُ فيروز تغنّي في حيرة عن حنينها، الذي لا تدري لمن لابد أن أردّ، بيني وبيني، قائلاً: ولكن يافيروز أنا مثلك عندي حنين وأعرف تماماً لمين. وكذلك الحال مع مقولة أمي الخالدة بأن «أيام الله كلها سوا.» فمنذ صغري، ملأ الشك قلبي في صحة مقولة أمي. لذلك كنتُ، بيني وبيني، أردّ على أمي قائلاً إن أيام الله ليست كلها سواء. إذ رغم صغر سنّي، كنتُ متأكداً أن أيام الأعياد غير الأيام العادية. وأن يوم الجمعة لابد أن يختلف عن يوم السبت مثلاً، ليس فقط في الاسم، بل في كل شيء. فأنا كنتُ أعشق أيام الجمع، وأكره أيام السبت. يوم الجمعة كان يومي المفضل. إذ فيه تغلق المدارس والكتاتيب أبوابها، وتفتح فيه أمامي أبواب دور السينما والملعب البلدي والبحر. وهو اليوم الوحيد في الأسبوع، الذي كنا نتذوق فيه طعم اللحم. لكن بتوالي الأيام والشهور والسنين، انقلبت الآية. وصار يوم الجمعة بالنسبة لي مجرد يوم آخر من أيام الأسبوع، أو بشكل أكثر تحديداً، لأنه اليوم المفضي ليوم السبت، اليوم الذي تشتجر فيه وتشتبك أفراحي بأحزاني في هذة المرحلة من عمري.

قرابة الساعة العاشرة صباحاً، من يوم السبت، كنتُ، في شقّتي، وفي كامل هيأتي في انتظار وصول مجيد بسيارته لتوصيلي لبرايتون، للقاء الأسبوعي مع أولادي. قرابة الساعة العاشرة والنصف، اتصل بي ابني الأكبر هاتفياً، لابلاغي بتأجيل اللقاء للأسبوع القادم. لم أُنصتْ لما كان يعدّده لي من أسباب وراء ألغاء الزيارة في اللحظات الأخيرة. انتظرت حتى انتهى وودعته. اتصلت بمجيد هاتفياً وابلغته بما حدث، ثم أشعلت سيجارة، وجلست على الكنبة أنفث غضبي في سكون لفترة من الوقت، حتى بدأت نسائم هدوء في التسرب إلى خلايا دمي وتسكين نبض قلبي، وحتى شعرت بعودة قواي للسيطرة من جديد على اضطراب تفكيري. أدركت أنّني في خضم حرب استنزاف كريهة ومكلفة على كافة المستويات. و للانتصار في أي حرب استنزاف، كالتي أتعرض لها، لابد من الصبر وطول النفس وتعبئة الجهود. لأن حروب الاستنزاف بطبيعتها، على عكس الحروب الخاطفة والسريعة، ليس من السهولة فيها على أي من الطرفين المتحاربين تحقيق نصر نهائي حاسم وسريع. الفكرة الرئيسة تقوم على استنزاف العدو بشكل مستمر. وللاسف الشديد، فإن مطلقتي، على عكسي تماماً، أثبتت قدرة عجيبة، ومهارة أحسدها عليها، على خوض غمار هذا النوع من الحروب الصعبة والطويلة. تذكرتُ العديد من أصدقائي، الذين مرّوا بظروف كالتي أمرّ بها، والحروب التي خاضوها، وما تعرضوا له من استنزاف صحي وعقلي ونفسي ومالي. تذكرتُ ابن عم صديقي سعيد، الذي فرّت زوجته بولديهما وحرمته حتى من مجرد رؤيتهما وسماع أصواتهما. تخيلته، مثلي، جالساً وحيداً في بيته، حائراً في كيفية الخروج من النفق المظلم، الذي وجد نفسه مختنقاً داخله بين عشية

وضحاها. فكّرت في الزيارة المرتقبة يوم الغد لزوجته وولديه. قلتُ في نفسي كيف يمكنني اللقاء بامرأة وزوجة حرمت زوجها من ولديه، دون سبب سوى الرغبة للعيش في لندن؟!

تساءلتُ: كيف يمكن لي، أنا المحروم من التمتع بالعيش مع أولادي، الالتقاء بامرأة أنانية مثلها، كسرت قلب رجل وأب إلى ألف قطعة دون رحمة ولا شفقة؟!

تذكرت الجملة الأولى التي يفتتح بها الكاتب البرتغالي جوزيه سارامقو روايته: «عام موت ريكاردو ريس»: (هنا ينتهي البحر وتبدأ الارض.) قلت لنفسي أن ينتهي البحر بالنسبة لي ليس مشكلة. المشكلة هي كيف لي بالعثور على الأرض القادرة على حملي بأوجاعي دون أن تغوص قدماي في أوحالها؟

نهضت من مكاني، وتوجهت نحو المطبخ، وبدأت في اعداد كوب شاي. سمعت صوت رنين هاتفي المحمول يرنّ فتجاهلته. وأنا أعدُّ كوب الشاي، تذكرت مقولة صديقتي حسيبة أن «الحديد البارد يقطع الحديد السخون». حملتُ كوب الشاي، وجلست على كرسي خشبي قريب من نافذة المطبخ المطلة على حديقة جيراني المقيمين في الطابق الارضي. الحديقة صغيرة، لكن لا تنقصها الرعاية والعناية ولا الحدب والاهتمام. كنت دوماً أُمنّي نفسي بالعيش، يوماً ما، في شقة أو بيت به حديقة. لو احتوت شقّتي هذه على حديقة، لسارعت بالخروج اليها والاسترخاء على طراوة عشبها، مستلقياً على قفاي مانحاً عينيَّ الفرصة للرفيف مع الطير في فلاة الغيم، الذي يأكل قلب السماء بتأن وهدوء. حينما غادرت شقتي، كان عقربا الساعة الملتفة حول معصمي الايمن، يشيران إلى الساعة الثانية عشرة والنصف. فكرت في الذهاب لزيارة سعيد وصاحبته، لكنّي عدلت عن الفكرة، وقررت بدل ذلك التمشي في الانحاء دون هدف.

بعد حوالي نصف ساعة، مللتُ من التسكع بلا هدف، وقررتُ الاتصال بحسيبة. نقرتُ رقمها الهاتفي من هاتفي المحمول فجاءني كالعادة صوتها الصديق مرحّبا: «واش راك ياصُحْبَه؟» قلت لها إنني بخير، ثم سالتها بالانكليزية عما تفعل وأين هي ومع من؟. ردت بالانكليزية قائلة إنها في كنغستون مع زوجها وابنها لتناول وجبة غداء في مطعم على النهر. سألتني عما أفعل. حكيت لها بمضض بما حدث لي. قالت لي بلكنة جزائرية ودودة : «أرواح. تعال اقعد معانا.» قلت لها إنّني لا أريد أن أفسد جلستها العائلية. ضحكت وقالت : «أرواح صُحْبَه أرواح». أبلغتها أنّني ساستقل الحافلة، وألحق بهم بعد أقل من ساعة.

استقليت الحافلة رقم 57 من ويمبل ستريت، وصعدت إلى الطابق العلوي منها، وجلست على مقعد مزدوج وحيداً. الشوارع هادئة. حركة مرور السيارات تنساب بسهولة ويسر. الضجيج الوحيد كان «ييكبك» في دماغي. كنتُ أعرف أني وقعت في شرّ أعمالي، وبين يديّ امراة موتورة، لا شغل ولا هم لها إلاّ أن تشق صدري بسكين، وتسلّ قلبي من مكانه وتمضغه نيئاً.

حين وصلتْ الحافلة كنغستون، هاتفت حسيبة وأبلغتها بوصولي. قالت لي بالانكليزية إنهم موجودون في مطعم فرنسي على النهر، وذكرت لي اسمه «فرير جاك» بعد دقائق قليلة، كنتُ جالساً مع حسيبة وزوجها ألستر وابنهما سامي. كان المطعم مزدحماً بالرواد. كنت معدوم الشهية للأكل، لذلك سارعت بطلب زجاجة بيرة. ضحكتْ حسيبة، حين رأتني متلهفاً على الشراب، وغمزت بعينها اليمنى إلى زوجها وقالت: «يبدو أن صديقنا الكاتب قد تحول إلى مدمن للكحول.» ضحك زوجها بصوت عال، وردّ معلقاً أنّه كثيراً ما قرأ عن علاقة الكتّاب والفنانين القوية بالكحول. لم اشأ الردّ، أو التعليق، وأكتفيت بالابتسام. سألت سامي عن أحواله وأحوال فريق ويستهام، الذي يشجعه. قاطعتْ حسيبة حديثنا، وسألتني بالانكليزية عن السبب وراء إمتناعي عن الأكل، ثم أضافت ساخرة بأني يجب ألاّ أفكّر في الفاتورة لأنها ستدفع ثمن الوجبة. وأضافت بلغة عربية متهكمة: «صدقة لوجه الله!»

كان المطعم مزدحماً كالعادة، في أيام عطلة الاسبوع، خاصة في العطلات المتسم طقسها بالدفء. لم أكن أفكر في شيء محدد، واكتفيت بالجلوس ومتابعة ألستر زوج حسيبة يلتهم طعامه بشهية. قالت حسيبة بالانكليزية: «أحكِ لألستر ما حدث لك اليوم.» هزّ ألستر رأسه عمودياً مشجعاً. حكيتُ باختصار وقائع المكالمة الهاتفية التي تسلمتها من ابني الأكبر في الصباح، وانعطفت على السوابق الماضية مثلها، وحين انتهيتُ، قال ألستر إنه من المهم لي أن أسيطر على عواطفي، وأتيح الفرصة لعقلي للتدبر في الأمر. قال، أيضاً، إنه من حقي أن أزعل قليلاً، كما أنه يتفهم الاحباط الذي غمرني، ثم نظر إلى حسيبة، وقال إن حسيبة ستفعل الشيء نفسه معه لو افترقا، لأن النساء في هذه الأمور يسيرهن منطق واحد وإن اختلفن. ضحكتْ حسيبة وقالت مخاطبة زوجها : «صدقني أن الأمور ستكون أسوأ بالنسبة لك.» ثم التفتت لي وقالت: «لا تفقد أعصابك بسرعة، ومن المهم الاستمرار في علاقتك بأولادك، وتذكر دائماً أن الحديد البارد يقطع الحديد السخون.» ثم، وكأم رؤوم، قالت لي بالعربية: «وحياة أولادك كُلْ لقمة معنا.» ابتسمت، وهززت رأسي موافقاً، وانتظرت حتى رأيت النادل قادماً، ورفعت يدي اليمنى عالياً وحين لمحها أقبل نحوي.

بكى قلبي.

نهارُ أحدٍ آخر مليءٌ
باحتمالات صعبة التكهن

صمتٌ مألوف يتمطى بكسلٍ في أنحاء شقّتي.

قلبي يدقُ، في صدري، كدقات مهراس.

رائحة التبغ المحروق المقززة تنبعث من كل مكان.

دماغي يدور ويدور (زي جمل طاحونة).

ورغم ذلك كنت في فراشي مستلقياً، مستشعراً خطوات صباح جديد يقترب بخفوت، ويشي بدفء طموح.

غادرتُ فراشي عارياً.

في غرفة الحمّام، فتحت صنبور الماء الدافئ، وملأت الحوض، ثم القيت بارتخاء جسدي فيه.

طراوة الماء الدافئ غمرتني، وأحسست بتوتر أطرافي ينحل كسائل كيماوي، ويذوب في ماء الحوض.

بقيت ممدداً مسترخياً حتى فَقَدَ الماءُ دفأه.

جففت بدني المبلل بمنشفة زرقاء اللون وجديدة .

توجهت إلى خزانة ملابسي وفتحتها، وسحبت منها غياراً داخلياً وتي شيرت، اشتريته من سوق شعبي بمدينة ريدينغ في السنة الأخيرة من دراستي. ورغم قِدمه، ظللت حريصاً على الاحتفاظ به وارتدائه، في شقّتي فقط، ذكرى لتلك الأيام.

جلستُ على الكرسي الخشبي، المتموضع قرب النافذة في المطبخ، أرشف من كوب خزفي، أهداه لي أبنائي بمناسبة عيد ميلادي السابق، شاياً ساخناً وأدخّن سيجارة. أراقب، من خلال زجاج النافذة، نهاراً آخر، يتسلل وئيداً بغيومه واحتمالاته الكامنة، إلى شراييني ملوثاً بالنيكوتين وبالضجيج الذي يهدر في دماغي، حينما، فجأة، وبدون استئذان، هلَّ عليَّ الطائر الجميل أبو الحنّاء الذي يسميه البريطانيون بـ «Red Robin – روبن الاحمر»، وان «أبا الحنّاء» هو الاسم العربي المقابل له، فاستفاق قلبي فرحاً، وفي عينيَّ اتقد وميضُ غبطة لرؤية صديق قديم وحبيب.

مازلت أتذكر ذكرى أول مرّة التقيت فيها أبا الحنّاء. أذكر أنّ الوقت كان ربيعاً فردوسياً، وكنتُ في زيارة إلى بيت صديق في الدراسة، انكليزي، من مدينة بليموث ويقيم في برايتون. كنّا في حديقة بيته، نجلس تحت ظل شجرة كبيرة، على كرسيين مصنوعين من بلاستيك رخيص، نحتسي بيرة مثلجة، وندخّن بشراهة، ونتجاذب أطراف حديث، حينما حطّ بالقرب منّا عصفور صغير الحجم. أعتقد أنّه أقل حجماً من «زرزور قصب» على الحافة العليا للسياج الخشبي الذي يفصل حديقة بيت صديقي عن حديقة بيت جاره، وظل ينظر إلينا بعينين وادعتين دون حراك. كانت بقعة حمراء، أقرب إلى لون البرتقال، بارزة وواضحة، تغطي صدره وحلقه ووجهه وخديه. في البداية لم أعره اهتماماً، ثم حين أطال الوقوف على السياج الخشبي محدّقاً بعينيه الوادعتين فينا، وجدتني مشدوداً إلى ضآلة حجمه، ووداعته، والأهم من ذلك، مزاجه الرائق، أو بالأحرى عدم استرابته فينا وخوفه منّا. انتبه صديقي إلفي إلى حيث كنت أحدّق، ثم ابتسم وقال وكأنه يقدّمه لي: «نحن ندعوه روبن الاحمر بسبب اللون الأحمر الذي يغطي صدره، وهو طائر وديع ويحب مؤانسة البشر، ولا يخافهم، ومن الممكن أن يطير الآن من مكانه، ويحطّ تحت أقدامنا، أو في أي مكان قريب منّا.» بدأ يحادثه، وكأنّه يخاطب طفلاً، ويدعوه للاقتراب. اندهشت جداً حين رأيت «روبن» يغادر مكانه في أعلى السياج الخشبي، ويحطّ قريباً جداً من المكان الذي يجلس فيه إلفي. منذ ذلك اليوم، صار روبن الأحمر صديقاً لي. كلما التقينا صدفة فاضَ قلبي فرحاً، وأتقدتْ عيناي بوميض غبطة، لأنّي، مع كثرة تردد اللقاءات، صرتُ أعرف أن ظهوره أمامي، أو لقائي به فأل خير.

من مكانه على الناصية الخارجية لنافذة مطبخي، ظل أبو الحنّاء واقفاً، ينظر إليَّ بوداعة. فكرتُ أن أفتح النافذة، إلاّ أنّني ترددت لخوفي أن يؤدي الصرير الذي يحدثه مصراعها القديم كلما حاولت فتحه أو إغلاقه إلى تخويفه، وبالتالي هروبه. ظل واقفاً في مكانه، وظللت جالساً في مكاني، ننظر إلى بعض من خلال زجاج النافذة.

عقب اليوم الأول على مغادرة السجن، وعودتي إلى دياري حيّاً، قالت لي أمي إنّ شيئاً غريباً حدث قبل خروجي من السجن بأيام قليلة، وسبب الارتباك لقلبها. قالت إنّها ذات نهار بينما كانت تعوّل في المطبخ، حطّ عصفور صغير، على الناصية الخارجية لنافذة المطبخ، وظلّ يحوم هناك جيئة وذهاباً، لفترة من الوقت، ثم فرَّ بعيداً. في اليوم التالي، تكرر المشهد ذاته، ثم حين تكرر المشهد في اليوم الثالث، قالت أمي إنها أدركت بغريزتها أنّ العصفور، من خلال حضوره المتكرر، كان يحمل بشارة ما. ولم تكن المسكينة تتخيّل أن تكون بشارة بعودتي اليهم حيّاً من ذلك المكان.

قلتُ للطائر: «تُرى أي بشارة تحمل لي أيّها الصديق الصغير؟»

لكنّ أبا الحنّاء غادرني فجأة، كما جاء.

نهضتُ من مكاني على الكرسي، واتجهت إلى حجرة الجلوس. التقطت جهاز التحكم الخاص بجهازي المذياع والتسجيل، وضغطت زر المذياع. استمعت بمضض إلى برنامج إخباري، ضمَّ مجموعة من الاعلاميين، يتحدثون حول فضيحة مجلس العموم، التي سرّبتها احدى الصحف، وكشفت عن سرقات مذهلة ارتكبها ممثلو الشعب ضد خزينة الشعب، وحين أُكتشف الأمر انقلبت الدنيا رأساً على عقب، لماذا؟

أحياناً، أحس أنني لا أفهم هؤلاء الانكليز.

هل كانوا يتوقعون من ساستهم أن يكونوا ملائكة؟

أن ينهب ساستهم ثروات الأمم الأخرى، طوال قرون عديدة، فلا ضير في ذلك، لكن أن ينهبوا خزائن بلادهم فلا، وآلف لا!

متى سيفهم، هؤلاء الانكليز، أن الساسة هم الساسة، في كل مكان وزمان، مجرد شراذم من قتلة أوغاد ولصوص، ولا يختلفون في شيء عن «الذئب الذي افترس قاطع الدرب ثم عاد ليفترس العابرين؟»

نهضت من مكان جلوسي على الكنبة، وتوجهت بضجر نحو النافذة المطلة على «كينيلورث افنيو».

الشارع ساكن كمقبرة.

قلبي، في صدري، يدق كدقات مهراس.

نافذةُ المرأة التي تسكن قبالتي، على الضفة الأخرى من الشارع، مغلقة، وستائرها مسدلة.

الشجرُ، الذي يصطف على الرصيف بلامبالاة، وأنا المسمّر واقفاً في مكاني أمام النافذة، شاهدان وحيدان، يقفان في صمت، يراقبان نهار أحد آخر، ينسل وئيداً وبدون اكتراث، إلى السكون الذي يطبق على الشارع.

صباحات الأحد اللندنية تذكّرني بصباحات طرابلس أيام الجمع، حيث يتوقف قلب المدينة عن النبض حتى المساء.

فكّرت أن صمتاً شبيهاً بصمت أيام صباحات الأحاد في لندن، وصباحات أيام الجمع في طرابلس، ملائم جداً ليكون مسرحاً تنطلق منه أحداث روايتي المقبلة.

صباح كهذا الصباح، الساكن سكون المقابر، مناسب جداً لاحداث وتفاصيل جريمة قتل امرأة بفعل زوجها أو العكس.

لابد لي من الحرص والتأني في إعداد المسرح للجريمة. بمعنى أنني لا أريد لقارئ روايتي المقبلة أن يصاب بالرعب.

أنا شخصياً أكره روايات الرعب حدّ المقت، واستنكف عن قراءتها، بل وأعتبرها مضيعة للوقت وإفساد للموهبة. ولا زلتُ إلى يومنا هذا غير قادر على معرفة الأسباب التي تدفع بكتّاب موهوبين إلى خوض غمار معترك كهذا.

ألا يكفي الرعب الذي يخلخل الافئدة والعقول، كل يوم، حين نصحو من النوم صباحاً، وندرك أنّه لا مفرّ لنا من مواجهة فظاعات عيش يوم آخر، إضافة إلى فظاعات الفرار اللا مجدي من الموت، الذي تسميه شهرزاد «هادم الملذات»؟

الغريب أننا نعيش حياتنا في رعب دائم ويومي من الموت، ثم حين يجيء الموت لا يتوقف رعبنا ولا ينتهي، وكأن الموت ليس خلاصاً!

روايتي المقبلة ستكون مكرّسة للخلاص من الرعب، الذي تزرعه في عيوننا وقلوبنا وقائع وتفاصيل الحياة اليومية.

سابدأ روايتي بهذه الافتتاحية:

«الحقيقة أكثر غرابة من الاسطورة

والموت لا يعني الخلاص من رعب الحياة اليومية.»

رنّ جرس هاتفي المحمول.

كان سعيد على الضفة الأخرى منه يبلغني أنّه وفاطمة في طريقهما إليَّ. بعد قرابة نصف ساعة، كان الاثنان يجلسان قبالتي على كنبة زوجية، في حجرة الجلوس، يحتسيان قهوة. قال سعيد إنّ السيدة ستكون في انتظارنا بعد ساعة من الآن، ويجب علينا الاسراع بالخروج لنكون في بيتها على تمام الموعد المضروب. غادرتُ حجرة الجلوس إلى حجرة نومي لارتداء ملابس الخروج، وعدت إليهما في دقائق قليلة. غادر ثلاثتنا شقّتي، في طريقنا إلى منطقة «فولهام» حيث تقيم السيدة مع الولدين.

في الموعد المحدد، كنّا واقفين أمام مدخل عمارة كبيرة. ضغط سعيد على أحد الاجراس، فردّ عليه صوت نسائي من خلال جهاز اتصال مثبت في جانب من باب العمارة، ثم فتح الباب آليا. فدخلنا وصعدنا درجات رخامية، إلى مقصدنا في الطابق الأول. فتحت لنا سيدة محجبة باب الشقة. فدخلنا وسلّمنا عليها بدون لمس، وسارت أمامنا، فتبعها ثلاثتنا إلى صالة مفتوحة مخصصة للجلوس. جلس ثلاثتنا على كنبة واحدة كبيرة، في حين جلست السيدة على كرسي خشبي قبالتنا، تفصل بيننا منضدة خشبية صغيرة. كانت الصالة واسعة، وبها نافذتان كبيرتان تطلان على الشارع الرئيس، وشبه خالية من الأثاث ونظافتها بادية للعيان. السيدة المحجّبة كانت في حوالي بداية العقد الخامس من العمر، بملامح رقيقة وهادئة. كانت ترتدي جلباباً أسود اللون، ويداها خاليتان من الأساور باستثناء خاتم الزوجية في بنصر يدها اليسرى. لم أرَ الولدين، ولم أسمع لهما صوتاً. كانت فاطمة تجلس إلى جانبي على الكنبة، وإلى جانبها جلس سعيد، في وضعية المتأهب للحديث. لم تقل المرأة شيئاً، وظلت تنقل بصرها بيننا بأدب. سألتنا المرأة إن كنّا نفضّل شراب شاي أم قهوة. أجاب ثلاثتنا بالنفي. تكلم سعيد أولاً، حيث قدّمنا إليها باسمّينا، ووصف فاطمة بأنها زوجته وأنا بصديقه ومضيفاً ومثل شقيقه الأكبر. استاءت من وصفه لي بشقيقه الاكبر، وتمنّيت لو أنّه اكتفى بوصف صديقي.

قال سعيد إنّ رمضان، زوج السيدة، يرسل إليها وإلى الولدين بسلامه، وهو كثير الانشـغال عليهم، ويتمنى لو أنّها ـ زوجته ـ تحاول الاتصال به هاتفياً للتفاهم حول بعض الأمور المهمة التي تهم حياتهما الزوجية وحياة ومستقبل ولديهما. تابعت المرأة بعينيها سعيداً وهو يقصّ عليها معاناة رمضان النفسية منذ مغادرتها والولدين ليبيا. قال سعيد، بصوت حاول

أن يكون هادئاً، إنّ رمضان يود أن يعرف ما تنوي المرأة فعله بنفسها وبالولدين في بريطانيا. ابتسمت المرأة بلطف، وقالت بصوت أنثوي إن ما تعرفه وتدريه هو أنها لا تريد لولديها العودة والعيش في ليبيا، بعد التجربة المريرة التي مرّوا بها جميعاً، خلال الأشهر القليلة التي عاشوها هناك. أضافت أن المشكلة التي تعانيها حالياً هي صعوبة حصولها على عمل، وأن المجلس البلدي مازال يدرس إمكانية منحها المساعدات الاجتماعية والمالية والخدمية، التي يوفرها لغيرها من الناس ذوي الوضعية المشابهة، وأن وجودهم في هذه الشقّة مؤقت. كما أن الولدين عادا للدراسة بمدرسة قريبة من بيتهما، وأنّهما في غاية السعادة. وأنّ على زوجها تفهم الموقف ومغادرة ليبيا والالتحاق بهم، إذا كان حريصاً على ولديه وأسرته، وفي حالة رفضه الانضمام إليهم، فإنها لن تجد مشكلة في تدبر أمورها، ولا تنوي مطالبته بشيء سوى تركهم لحالهم. قال سعيد إن رمضان يريد معرفة مصير الولدين، وأنّه يخاف عليهما وعلى مستقبلهما بعيشهما بعيداً عنه. غضبت المرأة لسماع ما قاله سعيد، وردت بصوت غاضب متسائلة: «منذ متى كان رمضان مهتما بولديه؟» وأضافت إنه لا يهتم بشيء في هذه الدنيا غير عمله. في السنوات الأولى كانت الدراسة كل همّه، ثم حين بدأ العمل صار العمل زوجته وأولاده وكل حياته، وأن الولدين لا يريدان العودة إلى ليبيا، وأنّها شخصياً لا تريد لزوجها أن يتدخل في حياتها وحياة ولديها. قال سعيد بصوت هادئ إن الحياة في الغربة صعبة، حتى على رجل مثله، فما بالك بامرأة وولدين قاصرين، وأنّه من الأفضل لها لو أنّها أعادت التفكير في الأمر الآن، حيث في المستطاع جبر الأمور مع زوجها، حتى لا ينتابها الندم فيما بعد. ردّت عليه المرأة متسائلة : «على أي شيء سأندم؟ هل سأندم على زوج لا أراه ولا يعرف ولديه؟ أم سأندم على اتاحة الفرصة لولديَّ كي يحظيا بحياة مستقرة وهانئة وتعليم جيد ؟ أم على تركي لبلاد تنام وتصحو على الفساد والرشاوي وخراب الأخلاق والدين؟ قل لي على ماذا سأندم؟»

نظر سعيد نحوي وكأنه يطلب مني التدخل، إلاّ أنّني تفاديت نظرته بشكل يؤكد له أن عليه تدبر الأمر بنفسه. قال سعيد مخاطبني فيما يشبه محاولة احراجي: «لماذا لا تتكلم يا أستاذ؟» تجاهلت سؤاله، ولم التفت إليه، في حين أن المرأة حرّكت عينيها نحوي، وكأنها كانت تتوقع مني أيضاً التدخل. واصلت التزام الصمت. كنتُ، في حقيقة الأمر، متردداً في القدوم ومقابلة السيدة، إلاّ أنّني بعد حضوري إلى بيتها والتقائي بها، ثم سماع حديثها، أحسست بنفسي منقسماً بين حنقي المسبق عليها لحرمانها أباً، مثلي، من رؤية ولديه والعيش معهما، وبين نوع من التعاطف الانساني إن لم يكن الاعجاب لقوة شخصيتها ولتصميمها على إختيار وتقرير مصيرها والالتزام بمسؤولياتها كأم.

بدأ سعيد يشرح بالانكليزية لفاطمة تفاصيل حديثه مع السيدة، التي كانت تتابع ما يقوله بانصات وأهتمام. سمعتُ فاطمة تطلب من سعيد أن يترجم شيئا ما تريد قوله للسيدة. التفت سعيد إلى المرأة وشرح لها طلب فاطمة. قالت السيدة بلغة انكليزية واضحة وبلا تردد إنها سمعت ما قالته فاطمة وفهمته، ثم التفتت إلى فاطمة قائلة إن بامكانها الحديث معها مباشرة. أعتدلت فاطمة في جلستها، ثم قالت إنّها تعتذر عن تدخلها في مسألة شخصية جداً وعائلية جداً،إلا أنّها تود أن تسأل السيدة سؤالاً تراه مهماً، ثم سألتها هل فكرتْ في إمكانية ان يطلب منها الولدان ذات يوم في المستقبل الإجابة عن السبب الذي دعاها إلى حرمانهما من أبيهما دون استشارتهما وموافقتهما؟ أضافت موضحة، أنها مرت بحادثة مشابهة في

موطنها لصديقة لها، وأنّها مازالت تتذكر ما كانت تردده الصديقة أمامها، من أنّها حُرمت من العيش مع أبيها بسبب أنانية أمها، وأنّها لن تغفر لأمها ما فعلته بها. ردّت السيدة قائلة إن الولدين قاصران ولا يعرفان مصلحتهما وليس بامكانهما تقريرها، وأنّها كأم لابد لها من اتخاذ ما تراه مناسباً من قرارات تهمّ مستقبلهما. قاطعتها فاطمة بقولها إن المسألة ليست سهلة كما تتوقع، لأن العيش في بريطانيا بولدين ودون عمل أمر شاق على سيدة مثلها. ابتسمت السيدة، وقالت إنّها تعرف تماماً ما هي مقدمة عليه، وأنها مؤهلة علمياً، وتجيد اللغة بشكل جيد، ومتأكدة من حصولها على عمل خلال الأسابيع المقبلة.

قال سعيد متسائلاً، وما سيحدث إذا لم تحصلي على عمل؟

ردّت السيدة قائلة إنها متأكدة من حصولها على عمل، في أقرب وقت ممكن.

تساءل سعيد مرة أخرى: «وماذا عن رمضان؟»

نظرت السيدة إليه نظرة فاحصة، وكأنها تراه للمرّة الأولى، ثم قالت بصوت هادئ: «لقد أوضحت لك، وباللغة العربية، موقفي منه ولا أرى داعياً لاعادة ما قلت.»

نهضتُ واقفاً من مكان جلوسي على الكنبة، فتبعتني فاطمة، في حين أن سعيداً ظل ينقل عينيه بيني وبينها بنظرات مستغربة. قلتُ له لقد انتهى الأمر الذي جئنا من أجله، وليس لدى السيدة ما تضيف. دعنا نغادر الآن. التفتُّ نحو السيدة وشكرتها على استقبالنا، وتمنيت لها ولولديها التوفيق، ثم تحركت خارجاً باتجاه باب الصالة. لحقتني فاطمة بعد أن شكرت السيدة على الاستقبال، ثم نهض سعيد من مكانه متثاقلاً، وتبعنا دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ونحن نسير في الشارع، في طريقنا إلى محطة القطارات، كاد أن ينشب بيني وبينه شجار. كان سعيد غاضباً عليَّ مرتين. المرّة الأولى لأنني التزمت الصمت، ولم أساعده في إقناع السيدة بتغيير رأيها. والثانية إنّني أنهيت اللقاء على عجل، ودون إذن منه. لم أرد عليه بكلمة واحدة، وواصلت سيري في الشارع، لا ألوي على شيء سوى الوصول في أقصر وقت إلى محطة قطارات الأنفاق.

لدى وصولنا المحطة، جلس ثلاثتنا على مقعد حديدي بارد صامتين، حينما التفتت نحوي فاطمة وقالت إن السيدة ذكّرتها بقصة أهل الكهف، التي اوردها افلاطون في «المدينة الفاضلة.» تساءل سعيد عن القصة. قالت إن السيدة مثلها مثل أناس الكهف، الذين كانوا يعيشون منقطعين عن العالم وخارجه بالكامل، ويعيشون في ظلام دامس، ثم ذات يوم تحدث ما يشبه الهزّة الأرضية فإذا بشق كبير في جدار الكهف يسمح لهم بالخروج منه إلى ضوء النهار وخضرة الشجر وتدفق مياه النهر، وتتاح لهم الفرصة للمرة الأولى في حياتهم لتذوق حياة أخرى مختلفة ومبهجة مقارنة بحياتهم السابقة في الكهف. قالت الغريب أنّهم قبل أن يخرجوا من الكهف كانوا يعيشون حياة هانئة، دون منغصات، لكنهم منذ أن خرجوا

منه، وأكتشفوا وجود حياة أخرى صار من الصعب عليهم العودة للعيش في الكهف مرّة أخرى، بمثل ما كانوا عليه من هدوء الحال.

سألها سعيد بصوت مثقل بغضب صبياني استغربته: «ماذا تقصدين؟»

نظرت نحوه فاطمة بعينيها الساحرتين، وابتسمت ابتسامة تشع أنوثة وشقاوة وخبثاً.

وصل القطار المحطة.

أخيراً، دخل ثلاثُتنا شقّتي.

تركتُ سعيداً وفاطمة بحجرة الجلوس، وهرعتُ سريعاً إلى حجرة نومي. خلعتُ ملابسي وارتديت أخرى مريحة ومناسبة للقعدة في الشقة،ثم هاتفت صديقتي حسيبة معتذراً عن عدم قدرتي على الالتقاء بها في «ساوث بانك»، وطلبت منها أن تعتذر نيابة عني لزملائها. سألتني حسيبة بالانكليزية عن السبب. فأجبت إنّني لست على ما يرام صحّياً وفي حاجة إلى بعض الراحة. ودّعتها وأغلقت الهاتف، ثم ألقيت بنفسي على السرير مقرّراً الفرار إلى النوم.

حين استيقظت من نومي كان المساء مخيّماً، ولم يكن غيري بالشقة، بعد أن غادرها سعيد وفاطمة. اتجهت إلى المطبخ، وأعددت كوب شاي، وجلست على الكرسي الخشبي في المطبخ، أدخّن، وأتابع من خلال زجاج النافذة، غيوم مساء كئيب في سماء لندن، تتحرك وئيداً باتجاه قلبي.

تكلم صمتي.